الباب الثانى

فى وصايا ملك العجم
المتميز على أقرانه بالفضل والحكم

obeikandl.com

obeikandl.com

وقال الراوى حسان : معدن الظرافة والإحسان ؛ فتوجه الحكيم حسيب الأديب الأريب إلى إيراد الأخبار عن الهداة الأخيار .

[٩] **فحكى أن ملكا** ؛ من ملوك الأمصار وسلاطين العجم يدعى شهريار، كان من العجم وكان فى الجود واللطف والكرم أمة من الأمم ، ملكه عظيم ، وفضله جسيم ، ولايته فى أحسن إقليم ، حسن السياسة وافر الكياسة ، ثناؤه عاطر وعطاؤه ماطر ، ووابل الحشمة من سحائب هيبته قاطر ، وله من الأولاد وفِلَذ الأكباد ستة رجال إلى المجد والكرم عِجَال[١] ، وكل له فى الفضل والأفضال أوسع مجال ، مشهور بالزعامة مخبور بالشهامة ، كفُّه سخى ، وكَنَفه أريحى[٢] ، ذو شجاعة باسلة ، وبراعة كاملة ، وحشمة وافرة، وهيبة زاجرة[٣] ، وهمة أَبْحُرها بالمكارم زاخرة ، مع رفق ولين للصعلوك المسكين ، وصلابة فى الدين ، وكان الأكبر سناً منهم ، متميزا فى هذه الشّيم عنهم ، وأعطر طيباً ، وأوفر نصيباً ، فكأنه فى شأنه قيل :

هَذَا الَّذى دَانَتْ الدُّنْيَا لِطَلْعَتِهِ والدينُ والملكُ والأيَّامُ والأُمَمُ

فلما دنت شمس عمر أبيهم للأفول ، وقارب غصن عيشه الذبول[٤] ، وعزم فراش الأجل على طى بساط حياته ، وأورد بريد الفناء منشور تسليمه إلى متولى وفاته ؛ أحضر بنيه وأكابر ذويه ، وقال : اعلموا يا بَنِىَّ إنى استوفيت نصيبى من الدُّنيا ؛ وارتقيت من لذاتها إلى الدرجة العليا ، وذقت حلوها ومرها ، وعاينت حرها وقُرها[٥] ، وعرفت خيرها وشرها ، ومع ارتقائى فيها إلى المنازل الفاخرة عملت بمقتضى ﴿**وابْتَغِ فِيمَا أَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الأَخِرَةَ**﴾ [القصص:٧٧] .

---

(١) العجال ، مفردها عجلة : السرعة . والمعنى أنهم يسارعون إلى المجد والكرم .
(٢) أى زكى الجانب .
(٣) مانعة .
(٤) شرف على الموت .
(٥) القر : البرد الشديد .

فتزودت بما وصلت إليه اليد ، وما أخرت عمل اليوم إلى الغد ، ولم تلهنى الغفلة ولا إرخاء المهلة عن الاستحضار لساعة الرحلة ، بل لم أزل للرحيل مستوفزا ، وللتحول والانتقال متجهزا ، وأنا اليوم عنكم راحل وسفينة عمرى أرست بالساحل ، وهذا سفر لا رجعة فيه ولا عودة لمسافركم إليكم تثنية ، وهذا أمر محتوم ، وقدر معلوم ، وقضاء قدره فى الأزل رب لا يزال ولم يزل سلطان ملكه لا يبيد وكل الملوك تحت أمره عبيد ، لا راد لما قضاه، ولا مانع لما أمضاه ، ولا هاد لما بناه ، ولا صاد لما سواه ، حكم بالموت على مخلوقاته وساقه ، لا باب قوة فى ردّه ولا طاقة ، وقد خفف من وجدى أن لى مثلكم يجدى ، وإنكم خلفى ومحيو سلفى ، وفيكم من يقوم مقامى ، ولا يمحو أيامى ولا يدرس آثارى ولا يطفىء نار أنوارى ، وها أنا أعهد إليكم وأستخلف الله عليكم ، وإن كنتم إلى الوصية غير محتاجين ، ولكن الذكرى تنفع المؤمنين .

واعلموا أن أزكى زهر تتنور به بصائر النقل فى رياض العبودية ؛ ورد الشكر ، وأزكى عطر تتعطر به مجامر العقل[1] فى غياض الحرية ورد الفكر ، وأن الشكر قيد النعم ، وسبب لازدياد الفضل والكرم ، قال الله تعالى وجل جلالاً ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧] .

وقد قيل من شكر القليل استحق الجزيل ، وإن الفكر يعلى المقامات ويعطى الكرامات ، واحتملوا الأذى تأمنوا ، ولا تهنوا[2] النائبة ولا تحزنوا ، ولا تظنوا الجود والكرم فى التبذير ، والبخل والتقتير من جملة التدبير . فقد نُصب للأعلام أعلاماً من قال عز مقاماً ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾ [الفرقان:٦٧] . وقال جل مخبرا وخبيرا ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُوراً﴾[الإسراء :٢٩].

---

(١) المجامر ، مفردها المجمرة : ما يوضع فيه الجمر ، أو المبخرة .

(٢) تستهينوا .

واتبعوا الأقوال والأفعال فلا خير فى قوال ليس بفعال ، ولا تشوهوا محاسن شيبكم بزخارف الكذب ، فإن الصدق أول ما ينبغى وأعظم ما يجب، ووسخ كلمة واحدة بالكذب ناطقة لا ينقيه ألف كلمة صادقة ، ومن تعود الكذب فى نطقه لا يعتمد على صدقه .

وداروا الأعداء مداراة الأدواء[1] يزد صديقكم ويكثر فريقكم ، ويجل ودودكم ، ويقل عدوكم وحسودكم .

وعليكم بملازمة الأخيار وإياكم وصحبة الأشرار ، ولا تطلبوا للرغبة فى صحبة الأشرار سبيلاً ، ولا تقيموا على ذلك أبداً دليلاً ، فمن غالط نفسه فى مجالسة الأشرار وطلب وفاء ممن جُبِل على طبيعة الفجار ، فقد أوجع نفسه بأقوى كيه وأصابه ما أصاب الفلاح مع الحية ، فسأل الأولاد والدهم على كيفية ذلك .

[١٠] **فقال** : ذُكِر أن واحدا من الأكياس طلب العزلة عن الناس ، ولازم انقطاعه ، وانقطع عن الجمعة والجماعة ، واشتغل لإقامة أوده بالزراعة ، وانعزل فى ذيل جبل ، وصاحب حية كانت تأنس إليه بكلامه ، وتأكل من فضلات طعامه ، فترقّت بينهما المعاهدة إلى أن بلغت إلى المعاقدة بأن تكون صادقة خالية عن المماذقة[2] ، ولا تكون كصحبة أبناء الزمان تكرع[3] من الغدر فى غدران ولا مشوبة بنفاق ، ولا مدخولة برياء وشقاق ، وأن تنعقد بينهما المودة والإخاء فى حالتى الشدة والرخاء ، فمر على هذه مدة وكلٌ حافظ عهده مراع صحبته ووده وكان الرجل إذا عنت له قضية عرضها على الحية واستشارها وأخذ أخبارها ، وتخرج هى إليه وتترامى على رجليه.

---

(١) الأدواء ، مفردها داء : العلة والمرض .
(٢) المفارقة .
(٣) كرع ، كرعاً فى الماء أو الإناء : أى مد عنقه وتناول الماء بفيه من موضعه . والمعنى أى شرب الغدر .

ففى بعض الأيام ، وعام من الأعوام ؛ وقع برد شديد وثلج وجليد ، فرأى الحية وقد سقطت قواها وخمدت أعضاها ، ووقعت فى شر حال وبرد وبال ، فحملته الشفقة والصداقة ، والعهد الذى أحكما وثاقه ، على أن آواها وحملها فى مخلاة حماره وأدناها ، ووضع المخلاة[1] فى رأس البهيم ، وتوجه لضرورة ذلك الفيبم ، فحست الحية بنفس أبى زياد، وتحرك عرق العدوان القديم وعاد ، وفعل خبثها خاصيته المألوفة ، ولعب سمها سميته المعروفة متبعا حديثه : حرام على النفس الخبيثة أن تخرج من الدنيا حتى تسيء لمن أحسن إليها ، فعضت الحية شفة الحمار الرقيقة عضة محب لاقى فى خلوة عشيقه ، وبَرَد مكانه من حرها ، وهربت الحية إلى جحرها.

وإنما أوردت هذا المثال ؛ لتعلموا يا ذوى الأفضال ؛ أن من صحب الأشرار ورغب فى مودة الفجار ، لا يأمن العثار[2] ولا يسلم من الأنكاد والبوار.

وقد قيل : إن صحبة الأخيار كجرة النضار[3] بطيئة الانكسار ، سريعة الانجبار . وصحبة الأشرار ؛ كجرة الفخار سريعة الانكسار ، بطيئة الانجبار. وبالجملة مافى صحبة الناس فائدة ، ولا فى مخالطة الناس كبير عائدة ، وقد قيل :

ولمْ تر مِنْ بَنِى الدُّنيا سلاماً فَإن تَرَه فأبْلغْه سَلاَمِى

وينبغى أن تكون غيبتكم وحضوركم ، وأحوالكم وأموركم ، واجتماعكم وفراقكم ، وصلحكم وشقاقكم ، فى حالتى السَّراء والضَّراء ، والبؤس والرخاء على وتيرة واحدة ؛ وهى الخالية عن الأغراض الفاسدة ؛ أعنى : إذا رضيتم؛ فبالحق ، وإذا غضبتم ؛ فالحق ، وإذا توجهتم ؛ فللحق ، ولا تبطَروا فى حالة النعم ، ولا تضجروا فى حالة النقم ، وعلى كل حال فلا يقع بينكم اختلال،

---

(١) جراب من الجلد توضع فيه الأشياء .

(٢) المهلكة .

(٣) النضار ، مفردها النضر : الذهب .

وذلك بتفرق الكلمة واختلافها وتصادمها ، وعدم ائتلافها فإنه قيل :

إنَّ الدليلَ الَّذى لَيْسَتْ لَهُ عَضدٌ ... مِثْل الوحيدِ بلاَ مال ولا عَددِ
كُونُوا جَمِيْعاً يَا بَنِىّ إذَا اعترَى ... خَطْبٌ وَلاَ تَتَفَرقُوا أَجْنَادَا
تَأبَى القدَاحَ إذَا جمعنَّ تَكَسرًا ... وَإذَا افتَرَقْنَّ تَكَسَرَتْ أَفْرَادَا

ولا تثقوا بأحد من الكبار والصغار إلا بعد الاختبار ، فى الشدة والضعف والرفق والعنف ، والبؤس والرخاء ، والخوف والرجاء .

ولا تقدموا على قديم الأصحاب أحدا ؛ ولا على الموثوق بهم من لا جربتموه أبداً ، وقد قيل فى المثل المشهور : النِّحِس المعروف خير من الجيد المنكور . وقيل أيضا : خير الأشياء جديدها ، وخير الأصحاب قديمها .

وأسسوا قواعد أخراكم فى دنياكم ، واغتنموا السعادة الباقية من الدار الفانية ، وعاملوا تجدوا ، وازرعوا تحصدوا ، وتفكروا من أول يومكم أحوال عزكم ، ومن أوائل عمركم أواخر دهركم ، ومن ليلة الهلال سِرار شهركم(١). فكل من له صدق قدم يتفكر وهو موجود حالة العدم ، ومن زمان شبابه حالة الهرم ، كما فعل التاجر المراقب وما آل إليه فى العواقب . فقبل الأرض الأولاد ، وقالوا : مولانا السلطان أعظم من أفاد لو تصدق على عبيده الطائعة ببيان تلك الواقعة .

[١١] **قال الملك** : ذكر الحكماء وذوو الفضل من العلماء ؛ أنه كان فى بعض الأمصار تاجر من أعيان التجار ، ذو مال جزيل وجاه عريض طويل، ونعمة وافرة ، وحشم وخدم متكاثرة ، من جملتهم غلام مخايل(٢) السعادة من جبينه لائحة ، وروائح النجابة من أذيال شمائله فائحة ، قد أفنى عمره فى خدمة مولاه ولم يقصِّر لحظة فى طلب رضاه .

---

(١) انتهاء شهركم .
(٢) علامات .

فقال له سيده فى بعض الأيام : لك علىَّ حق يا غلام ، وأنا أريد مكافأتك وأطلب موافاتك ، فتوجه هذه المرة فى هذه السفرة[1] فمهما ربحت فهو لك ، بعد أن أعتقتك من قيد رق أشغلك ، ثم أوسق مركباً ، وفسح له فى السير شرقا ومغربا ، وصاه بأشياء امتثل مرسومها والتزم منطوقها ومفهومها.

فقال له مولاه : سأرفعك على أضرابك ، وأغنيك عن أمثالك وأصحابك، وأجعلك كأكبر من فى الدنيا ولجميع رفقتك بمنزلة المولى . ثم أخذ فى تعبئة البضائع ، وأوسق مركبه المتاجر والمنافع ، وسلمه إلى الهواء والماء، بعد أن توكل على رب السماء .

فسار بعض أيام وهو فى أهنى مرام وأطيب عيش ومقام ، الماء رائق والهواء موافق ، والنكد مفارق والسرور مرافق ، حتى كأنه نوح ، وخضره الملاح ، وموسى وفتاه حافظاً الألواح ، وبينهما السفينة من نسف العواصف أمينة تجارى السهم والطير ، وتبارى الدُّهم[2] فى السير ، فإذا بالرياح هاجت والأمواج ماجت[3] ، وأشباح البحر تصادمت وأطواد[4] الأمواج على العرفاء[5] تلاطمت ، فعجز ذلك الملاح والحافظ ، ونشر مذهب ابنه أبو الجاحظ وترك سيمة الوقار والسكينة ، ورقم نقش الحروف فى ألواح السفينة، فشاهدوا من ذلك الهواء الأهوال وغدا قاع البحر كالجبال وصار ذلك الغراب[6] بمن فيه من الأصحاب ؛ كأحوال الدنيا بين صعود وهبوط، وقيام

---

(١) الرحلة .
(٢) الخيل السريعة
(٣) هاجت واضطربت .
(٤) أطواد ، مفردها طود : الجبل .
(٥) ربان السفينة .
(٦) سفينة من سفن البحر القديمة .

وسقوط ، طورا يستأمنون الأفلاك ، ويناجون الأملاك ، وينهون أخبار ظلمات صاحب الحوت إلى السّماك[١] ، وطورا يهبطون الغور[٢] وينظرون قرن الثور[٣] ، وربما مرقوا منه من تحت الزور ، فلم يزالوا عاجزين حيارى سكارى وما هم بسكارى يتناشدون :

وَفُلْكٌ رَكِبْنَاهُ والبَحْرُ ذُو هَوَاء فَثَارَ وَحَارَ وَمَارَا
فَطُوْرَاً عَلَوْنَا وَطَوْرَاً رَمَتْنَا أَرَاضِيهِ مِنْهَا انْحِدَارَا

وآخر الأمر نسفت السفينةَ الرياحُ ، وألقى كاتب الحاصب[٤] إلى كل حرف من حروف الجبال لوحاً من الألواح ، وأوعر الله سهلها وخرقها فأغرقها وأهلها ، وذهب البحر بأموالها وأرواحها ، وتعلق الغلام بلوح من ألواحها واستمر تقذفه الأمواج وتصدم به أثباج[٥] البحر الهِيَاج ، إلى أن وصل إلى ساحل فخرج وهو كئيب ناحل ، وصعد إلى جزيرة فواكهها غزيرة ووصفها عجيب ليس بها داع ولا مجيب ، فجعل يمشى فى جنباتها إلى أن أداه التوفيق إلى فم طريق فسار فى تلك الجادة وهداية الله له مادة ، فانتهى به المسير إلى أن تراءى له سواد كبير ، وبلغ مملكة عظيمة وولاية جسيمة، ورأى على بعد مدينة مسَّورة حصينة ، فعمد إلى ذلك البلد وتوجه نحوها وقصد ، فاستقبله طائفة من الرِّعال[٦] نساء ورجال ، يتبعهم جنود مجندة وطوائف محشدة ، مع طبول تضرب وفوارس تلعب ، وزمور تزعق ،

---

(١) السقف .
(٢) العمق .
(٣) قرن الثور ، وهو القرن الذى تحمل عليه الأرض كما هو شائع فى القصص الشعبى، وأراد أنه نزل فى العمق حتى وصل إليه .
(٤) الرياح الشديدة .
(٥) أثباج ، مفردها ثبجة : الموجة العالية .
(٦) الرعال ، مفردها الرعيل : اسم كل قطعة متقدمة من رجال أو خيل ، أو صف وراء صف .

وألسنة بالثناء تنطق ، حتى إذا وصلوا إليه تراموا عليه وأكبوا بين يديه يقبلون يديه ورجليه ، مستبشرين برؤيته متبركين بطلعته ، ثم ألبسوه الخُلع السنية وقدموا له فرساً علية بكنبوش[1] من ذهب ، وسرج مغرق ، ووضعوا له التاج على المفرق ، ومشوا في الخدمة بين يديه والجنائب[2] في الموكب تُجر لديه ، ينادون حاشاك وإليك ، سلطان الناس قادم عليك ، حتى وصلوا إلى المدينة ودخلوا قلعتها الحصينة ، ففرشوا شقق الحرير ونثروا النُّثَار الكثير وأجلسوه على السرير وأطلقوا مجامر النـد[3] والعبير ، ووقف في خدمته الصغير والكبير والمأمور والأمير ، والدستور[4] والوزير وأنشدوه :

قَدِمْتَ قُدوم البَدْر بَيْتَ سُعُودِهِ وَأَمْرُكَ فِينَا صَاعِدٌ كَصُعُودِهِ

وقالوا : اعلم يا مولانا إنك صرت لنا سلطانا ، ونحن كلنا عبدك وتابع مرادك ومريدك ، فافعل ما تختار ، وتحكم في الكبار منا والصغار ، وأمر مالك من مرسوم فامتثاله علينا محتوم ، وما منا إلا له مقام معلوم .

فجعل يتفكر في أمره ومنشأه ويتأمل ما صار إليه ويتدبر في منتهاه . فقال : إن هذا الأمر لابد له من سبب ، ولابد له من آخر ومنقلب ، فإنه لا يصدر في عالم الكون سدى ، وإن لهذا اليوم من غير شك غدا ، وإن الصانع القديم القادر الحكيم السميع العليم ، البصير الحي المريد الكريم ، لم يقدر هذه الأفعال على سبيل الإهمال ، ولم يحدث حدثاً لعباً ولا عبثاً .

وجعل هذه الأفكار آناء الليل وأطراف النهار وهو مع ذلك قائم شكر النعمة ، ملازم باب مولاه بالطاعة والخدمة ، واضع الأشياء في محلها،

---

(١) الكنبوش : البرذعة للدابة .

(٢) الخيل القوية

(٣) بخور طيب الرائحة .

(٤) المشير .

والمناصب فى يد أهلها ، ملتفت إلى أحوال الرعية عامل بينهم بالعدل والسوية، متعهد أمور الكبار والصغار بأنواع الإحسان وأصناف المسار[1] مؤسس قواعد المملكة والسلطنة ، على أركان العقل والعدل مهما أمكنه، متفحص عن مصالح المملكة ، سالك مع كل من أرباب الوظائف ما يقتضى مسلكه . ثم وقع اختياره من بين أولئك الجماعة ، على شاب جليل البراعة له فى سوق الفضل والوفاء أوفر بضاعة ، متصف بأنواع الكمال متحلٍ بزينة الأدب والجمال ، فاتخذه وزيراً وفى أموره ناصحاً ومشيراً ، فجعل يلاطفه ويرضيه ويكرمه ويدنيه ، ويفيض عليه من ملابس الإنعام وخلع الإفضال والإكرام ما ملك به حبة قلبه واستصفى خالص وده لبه ، وسكن فى سويدائه[2] وتمكن به من ضمير أحشائه إلى أن اختلى به وتلطف فى خطابه، واستنصحه فى جوابه ، وسأله عن أمر أمرته وموجب رفعته وسلطنته من غير معرفة لرفاق ولا أهلية ولا استحقاق ، ولا هو من بيت الملك ولا فى بحر السلطنة له فُلْك ، ولا معه مال ولا خيل يُهديها ، ولا رجال ولا معرفة يدلى بها ، ولا شجاعة وفضيلة يهتدى بتهذيبها .

فقال ذلك الشاب فى الجواب : اعلم أيها الملك الأعظم أن هذه البلدة وعساكر إقليمها وجنده ، قد اخترعوا أمراً واصطلحوا على عادة أخرى ، سألوا الرحمن أن يقيض لهم فى كل أوان شخصاً من جنس الإنسان ، يكون عليهم ذا سلطان ، فأجابهم إلى ذلك فسلكوا فى أمره هذه المسالك ، وذلك أنهم فى اليوم الذى قَدِمْتَ عليهم يرسل الله تعالى رجلاً من عالم الغيب إليهم، فيستقبلونه كما استقبلوك ، ويسلكون معه طريقة الملوك ، من غير نقص ولا زيادة وقد صارت هذه لهم عادة ، فيستمر عليهم حسنه فى هذه المرتبة

---

(١) السرور والفرح .

(٢) حبة القلب .

الحسنة، فإذا انقضى الأجل المعدود وجاء ذلك اليوم الموعود ، عمدوا إلى ذلك السلطان ، وقد صار فيهم ذا مكان ومكان ، وعلقة ونشب[١] وإخاء ونسب، وثبتت له أوتاد وصار له أهل وأولاد ، وجروه برجله من التخت وسلبوه ثوب العزة والرخت[٢] ، وألبسوه ثوب الذل والنكال ، وأوثقوه بالسلاسل والأغلال، وحمله الأهل والأقارب ، وأتوا به إلى بحر قريب فوضعوه في قارب ، وسلموه إلى مُوَكَّلَيْن ليوصلوه إلى ذلك الجانب ، فيوصلونه إلى ذلك البر وهو قفر[٣] أغبر ، ليس به أنيس ولا رفيق ، ولا جليس ولا صديق ، ولا زاد ولا ماء ، ولا نشو[٤] ولا نماء ، ولا مغيث ولا معين ، ولا قريب ولا قرين ، ولا قدرة ولا إمكان على الوصول إلى العمران، ولا ظل ولا ظليل ولا إلى الخلاص سبيل ، ولا إلى طريق النجاة دليل ، فيستمر هناك عرياناً وحيداً فريداً طريداً ؛ إلى أن يهلك عطشاً وجوعاً لا يملك إقامة ولا يستطيع رجوعا. ثم يستأنف أهل هذه البلاد ما لهم من فعل معتاد ، فيخرجون بالأهبة الكاملة إلى تلك الطريق السابلة ، فيقيض الله تعالى لهم رجلاً فيفعلون معه مثل مافعلوا مع غيره قولاً وعملاً وهذا دأبهم وديدنهم[٥] وقد ظهر لك ظاهرهم وباطنهم .

فقال ذلك الغلام الأملح لذلك الوزير المصلح : فهل اطلع أحد ممن تقدم على عاقبة هذا المأتم .

قال : قد عرف ذلك وتحقق أنه عن قريب هالك ولكن غرور السلطنة يلهيه ، وسرور التحكم والتسلط يطغيه ، وحضور اللذة الحاصلة لسواء العاقبة

(١) التعلق المتأصل .
(٢) الملك والسلطة .
(٣) الخلاء من الأرض ، لا ماء فيها ولا ناس ولا كلأ .
(٤) الخلق .
(٥) عادتهم الغالبة .

ينسيه ، ولا يفيق من غفلته ويستيقظ من رقدته ، إلا وعامه قد مضى ، والأجل المضروب قد انقضى ، وقد أحاطت به نوازل البلاء ، وهجم عليه بوازل القضاء ، فيستغيث ولا مغيث وينادى بالخلاص ولات حين مناص .

فلما سمع الغلام هذا الكلام أطرق مفكرا ، وبقى متحيرا ،وعلم أنه لابد للأيام أن تمضى ، وهذا الأجل المضروب ينقضى ، وإنه إن لم يتدارك أمره ويتلاف خيره وشره ، ويتدبر حاله ومصيره ، ومآله هلك هلاك الأبد ، ولم يشعر به أحد . فأخذ يفكر فى هذا الخلاص والتقصى من شرك الاقتناص . ثم قال للوزير الناصح الخبير : أيها الرفيق الشفيق والنصوح الصديق ، جزاك الله خيرا وكفاك ضيماً وضيراً[1] ، إنى قد فكرت فى شىء ينفع نفسى ويحييها ، ويدفع شر هذه البلية التى وقعت فيها ، وأريد معاونتك وأطلب مساعدتك ، فإنى رأيتك فى الفضل متميزاً بين أقرانك ، فائقاً فى محاسن الشِّيم على أصحابك وإخوانك .

فقال : افعل ياذا الزعامة ، وحباً لك وكرامة . قال : اعلم أيها الصاحب الأعظم أن الرجوع إلى هذا المكان الذى كنت فيه خارج عن الإمكان ، والإقامة فى هذا الملك المعهود إنما هى إلى أجل معدود ، ووقت محدود، وانقضاؤه على البتات[2] ، وكل ماهو آت آت ، وكيفية الخروج قد عرفت، وطريقها قد تقررت ووُصِفَت ، لهذا قيل : يا ذا الفضل الجزيل دخلنا مضطرين ، وأقمنا متحيرين وخرجنا مكرهين ولم يتجه مخلص من هذا المَقْنَص[3] إلا طريق واحد وسبيل غير متعاهد ؛ وهى أن تأخذ طائفة من البَنّائين ، وجماعة من المهندسين والنجارين ، وتذهب بهم أيها الوزير إلى

---

(١) الأذى .

(٢) التمام .

(٣) المأزق والورطة .

مكان إليه نصير ، فتأمرهم أن يبنوا لنا هناك مدينة ويشيدوا لنا فيها أماكن مكينة ، ومخازن وحواصل ، وتملؤها من الزاد المتواصل من المآكل الطيبة والأطعمة والأشربة اللذيذة المستعذبة ، ولا تغفل عن الإرسال ولا تختر الإمهال والإهمال فى الظهيرة والأسحار[١] ، والغدوة[٢] والآصال[٣] ، إذ أوقاتنا محدودة وأنفاسنا معدودة ، وساعة تمضى منها غير مردودة ، وإذا فات شىء من ذلك الوقت فلا نُعَوَّض عنه إلا الخيبة والمقت[٤] ، فننقل هناك ما يكفينا على حسب طاقتنا ومقدار قدرتنا واستطاعتنا ، فإذا تزوّدنا منها لم نرحل عنها بحيث إذا نُقِلْنا من هذه الديار وطُرِحنا فى تلك المهامة[٥] والقفار ، وجفانا الأصحاب وتخلى الأخلاء عنا والأحباب ، وأنكرنا المعارف والأدواء ، واحتوشتنا[٦] فى تلك البيداء[٧] فنون الداء ؛ نجد ما نستعين به على إقامة الأود[٨] مدة إقامتنا فى ذلك البلد .

فأجاب بالسمع والطاعة واختار من المعمارية جماعة ، وأحضر المراكب ، وقطع البحر إلى ذلك الجانب ، وجعل الملك يمدهم بالآلات والأدوات على عدد الأنفاس ومدى الساعات ، إلى أن أنهى المعمارية العمارة وأكملوا حواصل الملك وداره ، وأجروا فيها الأنهار وغرسوا فيها الأشجار ، فصارت تأوى إليها الطيور بالليل ، ويترنم فيها البلبل والهُزار ، بأنواع

---

(١) الأسحار ، مفردها سحر : الوقت من الليل قبيل الفجر .

(٢) الغُدْوَة ، ما بين الفجر وطلوع الشمس .

(٣) الآصال ، مفردها الأصيل : الوقت بين العصر والمغرب .

(٤) الخسارة .

(٥) الحزن والشدة .

(٦) أحاطت بنا .

(٧) الصحراء .

(٨) أى ما يستطيع به صلب عوده .

التسبيح والأذكار ، وغدت من أحسن الأمصار ، وبنوا حواليها الضياع والقرى ، وزرعوا منها الوهاد والثرى ، ثم أرسل إليها ما كان عنده من الخزائن ، ونفائس الجواهر والمعادن ، وأرسل من ظريف التحف إليها ومن حاجاته المعوَّل عليها ؛ بحيث لو أقام بها سنين قامت بكفايته وفَضُلت خزائنها عن حاجته ، وأكثر من إرسال ما يلزم من الأدوات والأشربة والمطعومات، وجهز الخدم والحشم ، وصنوف الاستعدادات من النعم ، فما انقضت مدة ملكه ودنت أوقات هلكه إلا ونفسه إلى مدينته تاقت ، وروحه إلى مشاهدتها اشتاقت ، وهو مستوفز[1] للرحيل ورابض للنهوض والتحويل .

فلما تكامل له فى الملك العام ، لم يشعر إلا وقد أحاط به الخاص والعام ممن كان يفديه بروحه ؛ من خادمه ونصوحه ومن كان سامعاً لكلمته من أعيان خدمه وحشمته ، وقد تجردوا لجذبه من السرير ، ونزع ما عليه من لباس الحرير ، ومشوا على عادتهم القديمة وسلبوه الحشمة الجسيمة ومملكته العظيمة ، وزالت الحشمة والكلمة والحرمة ، وشدوا وثاقه وذهبوا به إلى الحَرَّاقة[2] ، ووضعوه وقد ربطوه فى المركب الذى هيؤه ، وأوصلوه إلى ذلك البر من البحر .

فما وصل إليه إلا وقد أقبلت خدمه عليه ، وتمثلت طوائف الحشم والناس لديه ، ودقت البشائر المقدمة وحل فى سروره المقيم ونعمه ، واستمر فى أتم سرور واستقر فى أوفر حبور .

ثم قال الملك للأولاد وفلذ الأكباد : وإنما أوردت هذا المقال ؛ على سبيل المثال فاصغوا إلى حسن التنظير حتى أبين لكم النظير ، وعوا ما أقول بآذان القبول ، وتأملوا رموز المعانى من هذه الألفاظ التى خجلت المثانى[3] ، ثم تفكروا وتبصروا وبعد التذكر والتبصر تدبروا .

---

(١) تهيأ .

(٢) السفينة .

(٣) آيات القرآن ، وخجلت المثانى مبالغة فى روعة وجمال المعانى .

أما ذلك العام المعهود : فإنه الولد فى أول الوجود . وأما المركب الذى أودعه : فهو بطن أمه الذى استودعه . وانكسار السفينة : هو انشقاق المشيمة[1] . والجزيرة التى خرج إليها : فهى الدنيا التى دخل عليها . والناس الذين استقبلوه فأقاربه وذووه وأهلوه يربونه بالملاطفة والعلال ، ويعاملونه بالإكرام والإفضال . وذلك الشاب الذى هو وزيره : فهو عقله ومن إيمانه نوره . والسنة المضروبة : أجله المحتوم وعمره المعدود المعلوم . ونزوله عن سريره : عبارة عن آخرته ومصيره ، وخروجه من الدنيا بالإكراه ، وشروعه فى دخوله إلى أخراه . والبحر الثانى الذى طرح فيه : هو أحوال ما يعاينه عند الموت ويعانيه . والبر القفر : اللحد والقبر .

فالسعيد يتفكر فى كيفية أموره وأحواله ، ومبدأ أمره ومآله ، ثم يتدبر فى قِلِّ هذا وجُلِّه ويستعد لما خلق من أجله ، ويتحقق أن الإقامة فى الدنيا يسيرة وهى بالنسبة إلى الإقامة بدار البقاء قصيرة ، وإنه إذا جاء وقته المحتم لا يتأخر عنه ساعة ولا يتقدم ، فيأخذ فى الازدياد ، ويتهيأ ما أمكن ليوم المعاد ، ويعدّ نفسه كالمسافر الذى أتى بعض الحاضر ، فلا يقيم أكثر من يوم وقد رحل عن القوم كما قيل :

ألا إنَّما الدُّنيا كَمَنْزِلِ رَاكِبٍ أَنَاخَ عشياً وَهُوَ بالصبح رَاحِلُ[2]

إلى سفر طويل زاده قليل ، قفاره يابسة وطرقه دامسة[3] ، لا أنيس فيه ولا رفيق ، ولا مصاحب ولا صديق ولا دليل ولا خليل ، ولا مغيث ولا مُقيل[4] ، ولا ماء ولا معين ، ولا صاحب ولا مُعين ، فهيىء لهذا السفر بقدر

---

(١) ما يتغذى الجنين من خلاله داخل الرحم .

(٢) أناخ فلان بالمكان : أقام به .

(٣) مظلمة .

(٤) المقيل : مكان الراحة والنوم .

الإمكان ما قدر من الزاد والماء ، والمركب والكلأ ، ونور الطريق والمسافر والرفيق ، والخادم والأنيس ، والمنادم والجليس ، ويمهد المضجع للمبيت والمقيل ، ويهيىء الموضع فى النزول والرحيل .

وبالجملة لا يترك من أفعال الخير شيئاً إلا فعله ولا مجملاً إلا فصله، ولا متأخرا إلا قدمه ، ولا معاملا فى مبايعة إلا أسلفه وأسلمه . وليعلم أن كل ذلك محتاج إليه ومصروف لديه إذا نقل إلى دار البقاء وأقبل عليه ، فإذا جاء وقت الرحيل ونادى منادى الانتقال والتحويل ؛ وجد ما كان فى عمله حاضراً، وكل ما قدمه إلى رياض الخير نزهاً ناضراً ، كما قال ذو الجلال وأخبر به الصادق فى الوعد والمقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[فصلت:٣٠]. معنى أن ﴿لا تخافوا﴾ : لا خوف عليكم فيما هو أمامكم ، ولا تحزنوا على ما خلفتم وراءكم ، فإذا دخل فى قبره وجده روضة من رياض الجنة ، يبشرهم ربهم برحمة منه ، ورضوان وجنات ، لهم فيها نعيم مقيم . وأما الشقى الغافل الغبى الذى أمهل أمره ونسى الله وذكره ، وأهمل ماخُلق لأجله وتاه فى بيداء الضلال وسبله ، فقد اغتر بهذه اللذة اليسيرة فى تلك المدة القصيرة ، واستمر سكران فى ميدان العصيان ، من خمرة الطغيان وتردى لباس الردى ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى﴾ [البقرة :١٦] . فانهدمت عمارتهم ، ولا ربحت تجارتهم ، حتى إذا جاءه الوقت المعلوم ونزل به الأجل المحتوم ، ونظر أمام وتراءت له الأعلام ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾[الواقعة: ٩٣،٩٤] . نزل من دار الغرور إلى دار الشرور ، فندم ولا ينفعه الندم ، وقد زلت به القدم ، فخاب مآبا ، وقال ياليتنى كنت ترابا .

فانظروا يا أولادى ، وعدتى وعتادى ؛ حال الفريقين ، وتأملوا للطائفتين ، فقد بذلتُ فى النصيحة جهدى وأستخلف الله عليكم من بعدى .

فقال أكبر ولده ؛ وهو أسلك محاسنهم وواسطة عقدهم : جزى الله مولانا عن شفقته خيرا ، وأولاه على حسن النصيحة أجراً وذخراً ، فلقد أحييت قلوباً بزواهر حِكَمِكَ ، وشَنَّفت أسماعاً بجواهر كلمك ، ولكن إخوتى وإن كانوا من أولى العلم وأرباب النباهة والحلم ، والعقل الغزير والفضل الجم الكثير ، والرأى المصيب المنير ، غير أن حدة الشباب عليهم غالبة ، ودواعى النفس بشهواتها مطالبة ؛ لا سيما إن حصلوا على ملك عريض ، وكرعوا من ألبانه المَخَضَّ والمَخِيض[1] . فإن اتفق مع ذلك موافق منافق ، أو صاحب ممارق ، أو صديق خدوع ، أو مباطن مكار هلوع ، أضلهم عن سواء السبيل وصار إلى طريق المخالفة أوضح دليل ، فتتحوّل صداقتنا عداوة ، وتتبدّل فيها بالمرارة الحلاوة ، فينتزع الرخاء ويتمزع الإخاء ، ويبغى بعضنا على بعض ، وتعود الإخوة على موضعها بالنقض ، ويتولد من ذلك الفتن ، ويظهر من العداوة ما بطن ، فالرأى عندى أنه مادام زمام التصرف فى يد الإمكان يتصرف مولانا السلطان على مقدار جهده فى مصلحة عبده ؛ بحيث لا أكون مضغة للماضغ ، ومشغلة لكل قلب فارغ ، ولا يسلمنى لأسباب الحوادث ومخالب الدهر الكوارث ، فإنه بذلك يكفينى من نوائب الزمان ما يدهينى ، والعياذ بالله المنان من مفارقة مولانا السلطان جعلنى الله تعالى فداءه ولا أرانى فيه يوماً أساءه ، فليأخذ بيدى من هذه الورطة ، وليرحنى من شر هذه الخطة ، فإنه قد قيل : من لا يقيل المستقيل ولا يغيث المستغيث ، ولا يتقيد بمعنى هذا الحديث ، ولا يدفع غصة هذه القصة ويفوّت عند الإمكان الفرصة، يصيبه من حوادث الزمان ما أصاب بعض الجرذان الذى لم يُخلِّص الغزالة الواقعة فى شرك الحبالة[2] . قال السلطان : قل لى كيف كانت قصته وما كانت قضيته .

---

(١) الزبد .

(٢) شبكة الصياد .

[١٢] **فقال** : ذُكِر أن بعض الصيادين المحتالين الكيادين ، نصب حباله ليصيد غزالة ، فعلق بها مَهاة من المها[١] ، وطلبت مجالا واضطربت يمينا وشمالا ، فوقعت عينها على جرذ من الجرذان ، عنيد يتفرج عليها من بعيد ، فنادته بلسان زَلِق[٢] وأثنت عليه بلسان طلق ، وقالت : يا فارس ميدان المروة والنجدة والفتوة ، والموصوف بالشطارة والقوة ، هذا وقت الكرم، وأوان استعمال مكارم الشيم وفعل المعروف وإغاثة الملهوف ، وصرف الهمة إلى كشف الغمة . نعم ؛ وإن كانت طرائق الصداقة بيننا معدومة ، ونقوش التنافر على صحف خواطرنا مرقومة ، ونقود المعرفة والإخاء فى جنب التباين غير مبذولة ، ومرآة التوافق فيما بيننا غير مصقولة ، لكن فى الشدائد يعرف الإخاء ، والإخوان كثيرون فى الرخاة كما قيل :

دَعْوَى الإخَاء على الرّخاء كثيرة بل فى الشدائدِ تُعْرَفُ الإخوان

وقد قصدتك فى الخلاص ، وقرض شَرَك الاقتناص ، ونجاتى من سكين القناص ، فاقرض هذه الشبكة بأسنانك الحداد ، وافتح بينى وبينك باب الوداد ، فإنى أصلح لك صديقاً وأنا أكون لك عتيقاً ، وأعرف لك الجميلة فأصير عبداً لك إلى الممات ، وأدركنى قبل الوفاة والفوات ، ومع هذا يا ذا الجاه لا يكن عملك إلا لله فقد قيل :

مَنْ يَفْعَلُ الخَيْرَ لا يُعْدَم جَوَائزه لاَ يَذْهَب العرف بَيْنَ اللَّهِ والنّاس

فقهقه الجرذ وقهقر ، ولعب بإبطه وتمسخر ، وتمرغ يمينا وشمالا ، وتقصف طرباً ودلالاً ، وسخر بالغزالة وكلامها ، وبادر إلى عزلها وملامها، وتبرد بحرارتها وتحلى بمرارتها ، وقال : شهوتك الردية ، وحرص نفسك الشقية رَمَيَاك فى هذه البلية ، وتحركت سجيته الذميمة وطبيعته اللئيمة،

---

(١) الغزالة .

(٢) أى بتملق ولطف .

وأضرط بها ورقرق[1] وطفر وصفق ، وقال : عصب الرأس الصحيح من الحبل الصريح ، والتعرض لموارد الفناء من دلائل البلاهة والعناء ، ولو تعرضت لشبكة الصياد حكمت على عقلى بالفساد وحاشى فكرى المصيب ورأيى النجيح النجيب ، أن أجلب لنفسى مرضاً وأصيرها سهماً للصياد وغرضاً ، ولو فعلت ذلك لتصديت للمهالك ، وتصدّى لى الصياد فعادانى، وترصد لى وآذانى ، وحفر لى المِعْوَل وكرى وأوقد النيران فى جحرى ، فسلبنى قرارى وبُغْيتى ومسارى ، وأقل الأقسام أن يجلينى عن ديارى ، إن خلصت من الموت بسلام ، ولا أستطيع بعدها المقام وقد قيل : لا تسلك غير طريقك ولا تصاحب سوى رفيقك .

وأما أنا فمالى بصداقتك حاجة ، فدعى عنك الطمع واللجاجة[2] ، ثم هز عَطِفَيْه[3] ونظر إلى كتفيه ، وتبختر فى مشيته وتمايل فى غشيته[4] ، وولى فى تيهه وكبره يريد الدخول فى جحره ، وقد ترك الظبى آيساً فى حبائل فكره وضره ، وحبائك شدائده وشره ، فقيض الله حدأة خطفته ونبأت به فى الهواء نبأه[5] .

وأما الظبى فلما أيس من الجرذ وإعانته ، توجه إلى الرحمن بكليته، وقطع آماله عن كل أحد ، ورفع ضرورته إلى الواحد الصمد ، وأخلص نيته الصادقة وقطع من الخلائق علائقه[6] ، ثم جاء الصياد فأوثقه وقصد به البلد فصادفه شخص فاشتراه منه وأعتقه .

---

(١) تحرك .
(٢) الإلحاح .
(٣) أى هز عنقه متكبراً معرضاً .
(٤) حركته .
(٥) خبره .
(٦) نسبه وصلاته .

ولم أورد هذه اللطيفة إلى المسامع الشريفة ؛ إلا ليعلم أن التوانى عن فك العانى وإغاثة الملهوف أمر مخوف ، لا يرغب فيه ذو عقل وبإغاثة الملهوف وأخذ يد الجار ورد النقل ، ولابد من تأمل أعقاب القضايا قبل نزولها، وطلب طريقة رفعها قبل حلولها ، والخلاص من ورطتها قبل بغتتها.

وأسأل من صدقات مولانا الذى بالإحسان أولانا ، الإرشاد إلى عمل طريقة لطيفة نظيفة نقية خفيفة ، تكون عدتى فى شدتى مبقية للود بينى وبين إخوتى .

قال الملك : نعم ما قلت وحيث فى ميدان الصواب جلت ، فاعلم أن فى مملكتى ملوكاً كبراء ، وأساطين أمراء ، ورجالاً وجنوداً وأبطالاً وأسوداً أنا نشأتهم ولنصرة مثلك أعددتهم . كل منهم ذو وفاء ومودة وصفاء ، وباطنه خال من المكر والجفاء ، يقومون معك بأدنى إشارة ويحفظون جانبك من النهب والغارة وخصوصاً فلان أمير ممالك خراسان[1] ؛ فإنه أفصحهم خطاباً؛ وأمنعهم جنَاباً ، وأوسعهم فى العقل رحاباً ، وأشدهم محبة ، وأقربهم مودة وقربة وأوفاهم عهداً وأصفاهم وداً سينجدك فى حال اضطرارك إليه ، فلا يكون اعتمادك بعد اللّه إلا عليه ، مع أنى سأعلمهم بجمعهم وآمرهم بإيصال نفعهم وأؤكد عليهم فى ذلك فلا يخطر شيء من النكد ببالك .

فقبل ولده الأرض ، ووقف فى مقام العرض وقال : أيها الملك المجاب إن محبة غالب الأصحاب وصداقة أكثر الأحباب ، ومن يدعى خلوص المودة ويبذل ظاهرا فى ذلك جهده ، إنما هى لأغراض وناشئة عن أعراض وأمراض ، فإذا حصل ذلك الغ ض ، وزال العرض والمرض ، بردت عن المحبة قلوبهم ، وفرغت من نقد المودة جيوبهم وظهر بالجفاء وعدم الوفاء عيوبهم . ومن جملة ذلك الحسد الذى لم يخلُ منه جسد ، على نيل مرتبة أو البلوغ إلى منقبة ، وتمنى زوال نعمة المحسود وعدم الرضا بقضاء المعبود ، فإذا لم يحصل المراد تبدل القرب بالبعاد ، والمحبة بالبغضة

---

(١) خراسان : إقليم يقع حالياً فى شرق إيران على الحدود الأفغانية .معجم البلدان (٤١٦٤) .

والصحة بالمرضة ؛ كما جرى لنديم الملك الظاهر مع صديقه المسافر . قال لولده: أخبرنى بكيفية نكده وما تولد من قضية حسده .

[١٣] **قال الولد** : أخبرنى المملوك أنه كان عند بعض الملوك جماعة من العلماء ، وطائفة كثيرة من الندماء ، كل منهم لطيف المحاورة نظيف المعاشرة خفيف المكاثرة ، ظريف الحركة كثير البركة ، وبينهم شخص قد ساواهم بهذه الصفات ، وفاتهم فى علو الدرجات ، أظرفهم لهجة ، وألطفهم بهجة ، وأشرفهم نهجة ، عذب المكالمة حلو المنادمة ، تقبل الفصاحة ثغر ألفاظه فى خطابه ، ويتهلل مُحَيَّا البلاغة لإشراق جواهر جوابه ، اسمه رشيق وهو لكلٍ عشيق ، وللملك أكرم نديم ، وأقدر خديم ، وصديق قديم ، يقبل عليه ويميل دون الكل إليه .

ففى بعض الأيام قدم على الرشيق بعض الأعجام وكان من بغداد من ذوى الفسق منهم والفساد رجل من الشطار[١] ، عيَّار مكار ، خوّان غدار ، مستحق الرجم ليس فى السماء له نجم ، غير أنه متظاهر بجميل الخصال ، وأنه خدم أهل الفضل والأفضال ، فعلق بطبعه من شمائلهم ، وتلبس ظاهرا بفضائلهم ، فتلقاه الرشيق بما يقتضيه كرمه ويليق ، وبالغ فى إكرامه وتقدم فى احترامه وأكرم نزله ، وأفاض عليه نعماً جزلة ، ومال إليه بكليته ، وجعله من خواص جماعته ، فصار كل يوم بيدى فضلاً ويفتح باباً من الكلام وفصلاً ، إلى أن غلب على ذلك الزنديق[٢] حسد النديم المسمى برشيق ، لكونه من خواص الحضرة السلطانية ، وقصاص الخدمة الملكية ، وكبير الندماء وخطير القدماء فالتمس من النديم ذلك الوغد الذميم أن يوصله إلى الحضرة الشريفة ، ويسبل عليه ظلال نعمه الوريفة[٣] .

---

(١) الشطار ، مفردها الشاطر : قاطع الطريق .
(٢) الخطاف الذكى .
(٣) الممتدة .

فأفكر الرشيق الفكر الدقيق ، فى عقبى هذه القضية وما يحدث عنها من البلية ، فإنه قد كان أدرك من ذلك الشيطان سوء أفعاله من أقواله ، ووخيم عزماته من شمائل حركاته ، وشؤم سكناته وتحقق ذلك من عذبات لسانه وفلتاته . وكل شيء تزرعه ينفعك ، إلا ابن آدم إذا زرعته يقلعك . ومن أكرم ذا حسد ورأى من أمره عكسه ، فلا يلومن إلا نفسه . فصار يسوّف به ويدافعه ويمانعه ، ويصانعه ويدارى الوقت خوفا من المقت[1] ، إلى أن أيس منه وقطع الرجاء عنه ، فالتهب قيظ غضبه[2] ، واشتعل شواظ لهبه ، فما رأى لبرود هذه الغصة إلا كتابة قصة ، يعرضها ذلك المنهمك على آراء الملك ، يضع فيها لشدة حسده من الرشيق ، ويفت من عضده ، ويفترى ذلك المجترى عليه ماهو عنه برى ، فراقب الفرصة وكتب القصة يذكر له مساوى فيها ، ومن جملة مساويها أن بجسد الرشيق من الداء العتيق ما أعجز الأطباء وأعيا الحكماء الألباء ، وإن ذلك الداء يُعْدِى وفعل الإلزام يتعدى فيردى ، وأن كثيراً من الناس الأخيار ممن اطلع على دائه ومعضل بلائه يتحامون صحبته ويجتنبون قربه ومؤاكلته ، وإن هذه نصيحة عرضها وعلى نفسه فرضها، إذ القيام بأدائها واجب عليه وانهاؤها إلى المسامع الشريفة مندوب إليه .

فلما وقف الملك على مضمون ما أنهاه ذلك الخبيث فيما ادَّعاه ، تذكر ما قاله لبيد للنعمان عن وزيره العبسى فيما مضى من الزمان وهو[3]

---

(١) الحسرة والخسارة .

(٢) القيظ : الشديد الحر . وقيظ غضبه : شدته .

(٣) لبيد بن ربيعة ، شاعر مخضرم ، من أصحاب المعلقات توفى بالكوفة (٣١هـ) مسلماً والنعمان : هو ابن المنذر أبو قابوس ، من آخر ملوك الحيرة مدحه كثير من الشعراء توفى قبل مبعث النبى ﷺ . البداية والنهاية (٢/٢٠٥) .

نَحْنُ بَنُو أُم البَنِيْنَ الأرْبَعَة ... وَنَحْنُ خَيرُ عَامِرِ مِنْ صَعْصَعَهِ[1]
إِلَيْكَ جَاوَزْنَا بِلاداً مُسَبَعَةِ ... نُخبرُ عَنْ هَذَا خَبَيْراً فاسْمِعهُ
مهلاً أَبَيْتَ اللعْن لا تَأكُل مَعْهُ ... إن اسْتَهَ مِنْ بُرص مُلَمعهِ[2]
وإِنَّهُ يُدْخِل فِيها أصبعهُ ... يُدْخِلُهَا حَتَّى يُوَارى أشجعهِ[3]
كَأنما يَطْلُبُ شَيئاً ضَيْعهِ

فاشمأزت من الرشيق نفسه ، وزوى فى رياض مصاحبته غرسه ، فأمر الحجاب والبوابين أن يكونوا لدخوله على الملك آبين .

فلما أن جاء الرشيق وقصد الدخول بجأش وثيق ، منعوه من الدخول ، فرجع خائباً خاسراً وبقى حائرا بائراً[4] ، ولم يشكّ أن هذا الضرب سهمٌ غَرْبٌ[5] لأنه لم يعلم السبب ، فقضى من الزمان العجب ، فشرع يتفحص عن سبب البعاد ، ويتردد بين أغوار وأنجاد[6] ويذهب رائد فكره كل مذهب، ويعزم على توابعه ليقفوا على موانع المطلب ، إلى أن وقف على السبب المضرم ، وعلم أنه الإحسان إلى ذلك المجرم ، وظهر لذلك البحر البر من قوله : الإحسان إلى اللئيم سلفٌ فى الشر .

فاجتمع بجماعة من أصحابه وطائفة من خُلَّص أحبابه ، وعرض عليهم

---

(١) عامر بن صعصعة : قبيلة عربية من ولد عدنان سكنت شمال الجزيرة العربية . البداية والنهاية (٥/٨١) .
(٢) الاست : مُتبرز الإنسان .
(٣) الأشجع : جزء من اليد ، وهو موضع اتصال الإصبع بالكف .
(٤) البائر : ما بار من الأرض ، حائر بائر : أى لا يطيع مرشداً ، ولا يتجه لشىء .
(٥) سهم غرب : مثل يضرب للشىء لا يعرف أصله ، والسهم الغرب هو الذى لا يعرف من الذى رماه .
(٦) أغوار ، مفردها غور : العقر من كل شىء . أنجاد ، مفردها نجد : المرتفع من الأرض . والمعنى : أى يتردد بين هبوط وصعود .

قصته ، واستدفع بآرائهم غصته ، ثم تَعرَّى من لباسه عند الخواص من أناسه؛ لينظروا إلى جسده وبأسه ، فرأوا بدناً كسبائك الفضة ، وأطرافاً ناعمة غضة ، وأعضاء تحسبها من الحور غوانيها مسلمة لاشية[1] فيها ، فأجمعوا على سلامتها وذكروا للملك محاسنها بعلامتها ، وشهدوا بحسن صفائها ورونق بهائها ، وأنها سليمة عن الأدواء بريئة من كل داء وكأنه فى شأنه قيل:

وأعْجَبُ مَا شاهدتُ فى وَصلِهِ وقَدْ نزعنَا غَلالاَت وثوب حياء[2]
تلألؤ نور فى ترقرق مائه وصورة وروح فى مثال هواء

وإنما لشدة الحسد عاب ذلك الجسد .

فقال الملك : صدقتم وبالحق نطقتم ، ولكن كيف وقد قيل :

قَدْ قِيْلَ ذَلِكَ إنْ صدقاً وإنْ كذِباً فَمَا احتيالِكَ فى شىء وَقَدْ قَيلاَ

ثم قال الملك ؛ لجماعته المنتظمين فى سلك طاعته : الذى يدور فى معلومى ، ويبرز به مرسومى أن لا يدخل الرشيق ولا يصوب نظره إلىّ ، فإنى إذا نظرته تذكرت ما قيل واستحضرته ، فتشمئز النفس والخاطر ويتكدر الباطن والظاهر ، ويتشوه وجه العيش الناضر . ثم أمر له بمال جزيل وإقطاع عظيم جليل ، ومنعه من المثول بين يديه والدخول عليه .

وإنما أوردت هذه الحكاية المتضمنة لهذه النكاية ؛ لتحيط العلوم الشريفة ، والآراء المنيفة أن بعض المدعين للصداقة وأحكامها بأحكام الوثاقة، لا يعتمد على دعواهم ، ولا يركن إلى مضمون فحواهم ، فربما تكون صداقتهم من هذا القبيل ، فتؤدى إلى داء ثقيل وغم عريض طويل ، فلا يمكن علاجه ولا يسلك منهاجه ، وأعظم مافى ذلك ما يؤدى إلى المهالك ، وهو

---

(١) لا عيب فيها .
(٢) غلالات ، مفردها غلالة : ما يلبس تحت الثوب .

عداوة الأقرباء من الأبناء والآباء وذوى نصائح الإخاء . فإن ذلك غل قَمْل[1] وجرح لا يندمل ، ومرض لا يبرأ ويفضى بصاحبه إلى توسد الثرى[2] . وإن عداوة الأجانب أسهل من مخاشنة القرائب ، وإن القرائب إنما يرجون لدفع الداء ، فإذا كانوا هم الأعداء فقد أعضل الداء .

ومن شواهدها أيها الملك الفاضل ما جرى لابن سلطان بابل[3] ، مع عمه الظالم الخاتل[4] الخائن القاتل . فقال الملك الكبير : أظهرنا على صورة ذلك أيها الخبير .

[١٤] **قال** : ذكر أهل التاريخ أيها العالى الشماريخ[5] ، أنه كان فى ممالك بابل ملك عظيم فاضل كريم الشمائل ، عدله مذكور وفضله مشهور، همته عالية ، ونحور ممالكه بعقود فواضله حالية ، وأفواه مسالكه كثغور الغوانى بشَنَبِ[6] العدل والأمان زاهية ، وله ولد صاحب حسن وجمال وفضل، وأفضال وملاحة ودلال وصباحة وكمال ، غير أنه صغير السن لم تمر به التجارب ولم يُبْلَ أحوال الأباعد والأقارب ، لا مارس الأنام ولا سايس الأيام ، ولا سبر العدو والصديق ولا خَبِرَ الحريق والرحيق ، ولا فرق بين المرافق والمنافق ، والمصادم والمصادق ، والمصارم والملاصق .

فلما دنت وفاة أبيه جمع أخصاءه وذويه ، وأراد أن يعهد إلى ولده

---

(١) غل قمل : مثل يضرب لشدة العداوة والكراهية .

(٢) الثرى : التراب المبلل بالماء . وتوسد الثرى : أى الهلكة والموت .

(٣) بابل : أكبر وأشهر مدن الشرق القديم ، تقع على نهر الفرات ، وقد بلغت عصرها الذهبى فى عهد حمورابى (١٦٦٩) ق .م وحالياً محافظة فى جنوب العراق . معجم البلدان (١٢٦٨) .

(٤) المخادع .

(٥) الشماريخ ، مفردها شمروخ : العالى الهمة .

(٦) الشنب : الفم الطيب ، بشنب العدل ، أى الفم الذى ينطق بالعدل والحكمة .

ويرقيه إلى سنده ومستنده ، ثم دبر فى أموره وأحواله وتفكر فى مصيره ومآله ، وخشى أنه ربما أخل بشىء من القواعد ، فأبعد الأدنى وأدنى الأباعد، أو وضع شيئاً فى غير محله أو ولَّى منصبا غير أهله ؛ وذلك لعدم تدبر أو فساد تصور ، أو نشوز رفيق ، أو فقد مرشد وشفيق ، أو لغرض فاسد من كاشح[1] ، أو حاسد ، فيختل نظامه ، ويعوج قوامه ، ويفسد أمره ؛ فيخونه زيده وعمره .

وكان للملك أخ بل إنه فخ ، يدَّعى المقة[2] ، ويظهر أنه ثقة ، وله حنو وشفقة ، فعهد إليه واعتمد عليه ، وسلمه ولده ، وجعله وصيه ومستنده، وأجلسه مكانه ، وأشهد عليه من رؤساء المملكة أركانه ، أنه إذا توشح ولده بالولاية وآنس منه رشده بالرعية والرعاية ، يجلسه على السرير ويسلمه الكبير من جنده والصغير ، ويكون هو له أحسن وزير وأيمن مشير ، ونظام ملكه ورأس فلكه ، وعضد ساعده وساعد مساعده ، وأتابك[3] عساكره ، وعماد الإمرة وأوامره ، فإن نفس ولده فى سن جهلها تكون عوناً من أعوان رعونة[4] الصبا فى حزنها وسهلها ، ويؤدى إليه ملكه بمقتضى قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء :٥٨].

فقبل أخوه ذلك منه بقبول حسن ، وتكفل له أنه يأسو جراح الملك على وجه مستحسن ، وأظهر الود والترفق والتملق والترقرق[5] والتلهف ، والتأرق والتأسف والتحرق ، وبكى وتأوه ، وشكا وتذلل ، وتمسكن حتى تمكن.

---

(١) الكاشح : مضمر العداوة .

(٢) المقة : اللين السهل .

(٣) أتابك : قائد العسكر .

(٤) الطيش .

(٥) الرقة والحنو .

فلما قضى الملك نحبه وأجاب ربه ، صعد على السرير ، وتمكن من الجليل والحقير ، وتشربت أضلاعه وعمرت بحب الحكومة والتسلط فى دور طمعه رباعه[١] وابن أخيه فى كفالته والممالك فى إيالته[٢] ، واستمر الصغير تحت نظره لا يفارقه فى سفره ولا حضره ، يكتسب كل يوم مخايل السعادة، ويطرح من حركاته شمائل السيادة ، ويظهر على أعطافه الملوكية يوماً فيوماً آثار الحسنى وزيادة ، إلى أن ارتفع قدراً وصار فى الكمال هلالاً وبدراً ، فشم عمه من رياض همته ، عرف الطلب وقوى فى ذلك ما كان تقدم من سبب، وعرف أنه لابد له فى ذلك من تسريحه ، فلو منعه لقام كل الخلق باستهجانه وتقبيحه ، فتحل عقوده ، وتقل جنوده ، ويختل عن عسكره بنوده ، وتفنى صورته وسيرته ، وينقض من حبل عمره مريرته[٣] فلا يحصل من المُلكِ إلا على الهَلْكِ ، فأعمل الكيد وخرج إلى الصيد ، فتفرقت العساكر وانفرد الملك الماكر ، ومعه ابن أخيه فاختلى به فى تيه ، فوثب عليه وفجعه بكريمتيه[٤] ، وألقاه فى البرية إلى مخاليب المنية[٥] ، وتركه وحيدا أعمى لا يجد دليلاً ولا يهتدى سبيلاً ، ولا يعرف مقراً ولا مقيلاً . ثم اجتمع بعسكره ظاناً أنه فاز بظفره ، مخبراً بوفاته وتعمية خبره ؛ ففرغ باله وأصلح رجاله ، واطمأن خاطره ، واستقرت أموره ، واستقامت حبوره .

فلما هجم جيش اللَّيل ، أقبلت السباع من الوادى كأنها السيل ، وقصدت الوحوش والهوام مالها من مأوى ومقام ، وعوت الذئاب ، وزأرت الأسود، وهمرت النمور والنسور والفهود ، فساورت ابن الملك الهموم ، وأورثته

(١) أى تمكن الطمع منه .
(٢) كنفه .
(٣) المريرة : الحبل الشديد القتل . والمعنى : أى أنزل به البلاء .
(٤) عينيه .
(٥) الموت والهلاك .

أصناف الغموم ، واحتوشته المخاوف والوجوم ، فلجأ إلى جناب الحى القيوم، جناب لا يخيب قاصده ، ولا يَصْدُر إلا بنيل الأمل وارده ، وصار يحسس بيديه ، ويصغى إلى الحيوان بأذنيه ، ويتمشى إلى كل جانب ويهوى بيديه إلى الأطراف والجوانب ، ويتعلق بحبال الهواء كالغريق الغاطس فى الماء . فوقعت يده على شجرة فعلق فيها يديه وظُفْرَه ، وصعد عليها وأوى إليها، وتوجه بقلبه إلى خالقه وموجده ورازقه ، وقطع عما سواه أسباب علائقه ، واشتغل بالذكر والتسبيح ، وفوض أمره إلى الله سبحانه وتعالى بأمل فسيح، واستمر فى هذا الويل برهة من الليل ، وكان طائفة من الجان المهرة ، كل ليلة تأوى إلى هذه الشجرة فيتذاكرون ما جرى فى العالم ، وما صدر فى عالم الكون والفساد من أعمال بنى آدم ، ويقيمون أفراحهم ويتعاطون انشراحهم .

فلما اجتمعوا تلك الليلة ، ذكر كلّ قوله وما جرى من الحوادث ، ومن المفرحات والكربات ، وما وقع من العجائب واتفق من واقعات الغرائب . فقال واحد من القوم : ومن أعجب ما وقع اليوم من الأمر الكريه ، ما فعله ملك بابل بابن أخيه ، وذكر لهم القضية وما تضمنته من بلية ، وجعل يتأرق ويتحرق ويتبرم ويتضرم ويحرق الأُرَم[1] ، ويتعجب من عدم وفاء بنى آدم .

فقال رئيس الجان : وهذا غير بديع من طبع الإنسان فإنه مجبول على الغدر ، مطبوع على الدهاء والمكر ، ألم تسمع قول قائلهم فى وصف فضائلهم ، وقبيح شمائلهم ممن انخرط فى سلك الفضل بدون منع ولا حجز: إذا كان الغدر طباعا ، فالثقة بكل أحد عجز .

ثم قال الرئيس : اعلم يا نفيس إنى أعلم ما يزيل هذا الألم ويطفىء هذا الضرم ، ويشفى هذا السقْم ، وهو أن هذه الشجرة النجيبة لها خاصية عجيبة،

---

(١) الأرم : الأسنان والأضراس . ويحرقها : أى يحكها ببعضها من شدة الغضب .

اسمها شجرة النور وفضلها فى ذلك مشهور ، إذا أُخِذَ من عصارة ورقها ووضعها الأعمى على حدقها انجلى عماها بقدرة رب براها وخلقها فسوّاها، ورد إليها بصرها وزاد نظرها . ثم إن الخرابة الفلانية فيها جحر حية بذية، وهى تابعة ملك بابل الفاعل هذا الفعل السافل ، وحياته متعلقة بحياتها ، وموته موقوف على مماتها ؛ لأن طالعه على طالعها ، وطبعه اللئيم مطبوع على طابعها ، فبمجرد ما تموت الحية يموت ، ويُنْقَل من دَرَجِ الملك إلى دَرَج الملكوت . كل ذلك . وابن الملك يسمع هذا القول ، فلجأ إلى ذى القَوة والحَوْل حتى مَنَّ عليه بعد شديد العقاب بهذا الطَّوْلِ[1] ، وجعل ينادى ويبتهل ويقول : متى جبين الصبح يهل ، وينشد :

ألاَ أيُّها اللّيلُ الطويلُ ألا انْجَلِى بصُبْح وَمَا الإصْبَاح مِنْكَ بأمْثَل

فلما أصبح الصباح ونادى مؤذن السعد حى على الفلاح ، تيمَّم ابن الملك ، وصلى وحمد الله على النهار إذا تجلى ، ورض[2] بين حجرين من ورق الشجرة واكتحل بمائه فرد الله عليه بصره ، ثم وجَّه ذهابه إلى تلك الخرابة ورصد خروج تلك الحية اللاطئة[3] وضربها ضربة غير خاطئة فأحاط بها نازل الهلك ، وفى الحال خر المَلِك ميتا على سرير المُلْك . وبينما العزاء عليه قائم وإذا بصاحب السرير عليهم قادم ، وقد قصد ملك أبيه ، وتمكن من ملكه وذويه وتصرف فيه كما شاء ، وألبسه خلعة الملك من يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء .

وإنما أوردت هذا التمثيل ؛ خوفاً أن يكونَ صاحبُ مولاناً الجليل الذى بخراسان من هذا القبيل ، فتُبَدَّل المحبة بالبغض ، وترجع على موضوعها بالنقض .

---

(١) الفضل .
(٢) دق وطحن .
(٣) الملاصقة لجحرها الخبيثة .

ثم إن بعض الأصحاب والإخوان يفعل ما يفعله من الخير والإحسان على سبيل المكافأة ، لا على طريق المروءة والمصافاة ، فإذا كافأ بالإحسان عاد إلى ما كان عليه من العدوان ، فاسأل الحضرة الشريفة ، والمراحم المنيفة ، ذات الفضل المشهور والإحسان المأثور ، التأمل فى عواقب هذه الأمور ؛ لئلا يصيبنا ما أصاب المسافر ضيف الحدَّاد المنافر من العفريت الملقى فى المحافر . قال أخبرنى أيها الولد النجيب عن ذلك الأمر العجيب ، وقاك الله شر الوجيب[1] .

[١٥] **قال** : بلغنى من رواة الأخبار ؛ أن شخصاً من الأخيار ، لازم الأسفار وقطع القفار ، فجاب مشارق الأرض ومغاربها ، وبلغ أكنافها وجوانبها ، وشاهد عجائبها وغرائبها ، وقاسى حر الزمان وقُره ، وذاق حلوه ومره ، وعانى خيره وشره ، فأداه بعض المسير إلى بلدٍ كبيرٍ ، فرأى فى بعض نواحيه ، وطرف من بعض ضواحيه طائفة من الصبيان قد اجتمعوا فى مكان ، فوصل إليهم ذلك الفقير فوجدهم واقفين على حفير[2] ، يرمون فيه بالأحجار ، وهم يستغيثون بالستَّار من العدو المكار ، والخبيث الغدار ، والحسود القديم ، والكافر الذميم ، والشيطان الرجيم ، فسألهم ما هذه المعضلة؟ فقالوا : عفريت وقع فى هذه البئر المعطَّلة ؛ وهو عدو قديم نريد أن نقتله .

فقال : افسحوا حتى أنظر إليه ، وأساعدكم عليه ، ففسحوا عن ذلك الطوىّ[3] ، فنظر فى قعر الركىّ[4] ، فرأى فى جانب منها عفريتاً منزوياً ،

---

(١) الجبن والخوف .
(٢) الحفرة فى الأرض كبيرة .
(٣) البئر .
(٤) البئر ذات الماء .

وقد هشموه وكسروه وحطموه ، وكاد يهلك مما رجموه فعندما نظر إليه رق له وعطف عليه ، وقال : أفضل المعروف إغاثة الملهوف ، وإن لم يكن بيننا سابقة صداقة ، ولا وشيجة[1] محبة ولا علاقة ؛ بل عداوتنا جِبَلِية ، ومباينتنا أزلية ؛ لكن فعل الخير لا يبور ولله عاقبة الأمور ، وإذا قصد الإنسان فعل الخير فلا عليه أن فعله مع أهله أو الغير ، وقد قيل للتمثيل : أيها الإنسان قد عداك الذم افعل الخير وألقه فى اليم . ثم منع عنه الكبير والصغير وساعده على الخروج من البير ، واستنقذه من أيديهم ، وأطلقه ؛ فكان كمن اشتراه وأعتقه .

فلما رأى العفريت هذا الإحسان من ذلك الإنسان من غير سابقة ولا عرفان ، قبل يده ورجله وشكر له هذه الفعلة ، وقال : إنى عاجز عن مكافأتك يا إنسان فى هذا الأوان ، وأنا اسمى فلان ، فإن وقَعْتَ فى ضيق ، أو ضللت فى طريق فنادنى باسمى أحضر إليك بجسمى ، وأنفعك فى ضيقك وأرشدك إلى طريقك ، وأكافئك أيها اللوذ عى[2] بما فعلته معى .

ثم وَدّع كلٌ صاحبه وخالف فى السير جانبه ، فوصل السَّيَّاح إلى بلد من البلاد له فيها صديق حدَّاد ، فنزل عنده فأكرمه ورحب به وخدمه ، وكان لتلك البلدة عادة حسنة أنهم فى يوم مُعَيَّن فى كل سنة يقربون من يقدم عليهم فيه ، ولا يسألون أخامل هو أم نبيه ؟ فإن لم يقدم عليهم غريب فى ذلك اليوم، اقترع فيما بينهم القوم ، فمن خَرَجَتْ قُرْعته سحبوه وكسروا قَرْعته وقربوه[3] ، فوافق ذلك اليوم قدوم السائح ، ولم يرد سواه من غاد ورائح ، ولا شعر به أحد من أهل تلك البلد . فأخذوا فى القرعة بالاجتهاد فطرقت القُرْعة قَرْعة الحداد ، فقبضوا عليه وعزموا على تقريبه .

---

(١) صلة ورابطة .

(٢) الذكى .

(٣) أى جعلوه قرباناً .

فقال : عندى غريب لم يكن أحد يدرى به ، فلم يدر السائح إلا وقد أحاطت به الشوائخ[1] فهجموا عليه ، وربطوا عنقه ويديه ، ثم سحبوه وحبسوه وفى أضيق مكان أجلسوه ، وأشهروا النداء أنه حصل للحدّاد الفداء، فعلم السائح القضية وتحقق أنه تورط فى بلية ، فذكر اسم العفريت وقد علقه الهم علوق النار بالكبريت ، فحضر لساعته ووقته فرأى السائح فى هوله ومقته ، واطلع على جملة الشان ، فقال : لا تخش يا ذا الإحسان ، اعلم إن أمير هذه البلد له ولد ، هو واحد أبويه ، وإنى الآن أصرعه بين يديه ، ثم أنادى فى النادى[2] إن رمتم شفاء هذا العليل فهو بدعاء ذلك الرجل الجليل، السيد الصالح الزاهد السائح ، ضيف الحداد الذى بسببه حصلت هذه الأنكاد، فأطلقوه والتمسوا دعاءه ، فإن فيه لعليلكم شفاءه ، ولا تطلبوا من غيره دواءه، فإذا طلبوك وأعزوك وأرغبوك وأكرموك واحترموك ، فادع بما يرفع نكدهم فإنى إذ ذاك أترك ولدهم ، فإذا رأوا منك هذه الكرامة بالغوا وسلموك الزعامة، وخيروك بين الرحيل والإقامة ، وأقل ما يفعل معك السلامة .

ثم ذهب إلى ابن الملك وَخَبَطَه[3] وحلّ فى أعضائه وربطه فتخبط الصبى ، وتخيل وتكسل ، وتخيل وكادت روحه تخرج ويدرج مع من يدرج[4] فاشتغلوا بشأنهم عن أمر قربانهم ، فطلبوا الأطباء فأعياهم علاج هذا الداء ، ولم يقدروا على علاجه وتعديل مزاجه وتقويم إعوجاجه ، واشتغلت الخواطر وتنكد البادى والحاضر . فعند ذلك نادى العفريت من ذلك البيت يسمعون كلامه ولا ينظرون مقامه ، إن زوال هذا العارض ، ومنع هذا الداء المعارض عند رجل قدوة مستجاب الدعوة ، رجل صالح زاهد سائح عالم

---

(١) الجنود .

(٢) جموع الناس .

(٣) خبطه الشيطان : مسّه بخبل وجنون .

(٤) يموت ويهلك .

عامل كامل فاضل ، هو بركة البلاد والعباد ، مادة الصلاح وقاطع الفساد ، وهو ضيف الحدَّاد الذى فرط منكم فى حقه سوء الأدب ، فأدركوه بالطلب وأسرِعوا نحوه ، والتمسوا منه دعوة ؛ وإلا فولدكم هالك عنوة ، وبادروا باللحوق ؛ لئلا يخرج السهم من فوق فإن سهم هذا المصاب بسبب ذلك أصاب.

فركب الملك بنفسه وسارع إلى باب حبسه ، ودخل عليه وأكب على رجليه ، وطلب دعاءه ورام ازلده شفاءه فتوضأ وصلى ، وأعرض عنهم وتولى ، وتوجه ودعا فحصل للولد الشفا ، ونهض فى الحال كأنما نشط من عقال . ثم إن العفريت الجائح[1] أتى الرجل السائح وقال : لا تحسب إنى إذا كافيتك صادقتك أو صافيتك ، كيف وعدواتنا قديمة مغروزة ، وغروس التباغض فى حدائق ذواتنا مركوزة ، أنا من نار وأنت من تراب ، شيمتك الترابية ، وشيمتى الإحراق والخراب ، ومتى استقام أعوج مع قَوَام[2] أو وجد بين المتباينين التئام ؛ وإنما كان هذا الوفاء لئلا ينسب إلى الجفاء ، ونحن على الكدر دون الصفاء ، وعلى ما نحن عليه من العدوان ، وإن لم يصر بيننا معرفة ولا كان ، ثم صار شعلة لهب وترك السائح وذهب .

ثم قال ابن الملك : ومن أنواع المحبة والصداقة وما يتأكد فيها من العلاقة نوع محبة تتوفر فيه الرغبة ، ينشأ من فرط الشهوة ويركب من صاحبه على الصهوة[3] ، وتميل إليه النفس والطبيعة ، ولكن تكون استحالته سريعة فيزول بأدنى سبب ، ويشبه شواظ اللهب يتلهب ساعة وقد ذهب ، وربما أدى إلى الهلاك والعطب ، كما فعل بالبطة الثعلب ، حيث كانت محبتها

---

(١) الداهية .

(٢) استقامة .

(٣) الصهوة : موضع جلوس الفارس على ظهر جواده .

غير صادقة ومودتها بالشهوة مماذقة ، وشتان ما بين المحبة الخالصة والمحبة المنافقة لا جرم أدت إلى عكسها وإزهاق نفسها . قال الملك : أخبرنى أيها الخبير كيف هو هذا النظير .

[١٦] **قال ابن الملك :** ذُكِرَ أن زوجا من البط كان له مأوى على شط جارٍ بين رياض ومروج وغياض ، أزاهيدها عطرة ورياحينها نضرة ، وقريب من وكر البطتين مأوى لأبى الحصين[١] ، فحصل لذلك الثعلب المَرَض المسمى بداء الثعلب فسقط وبره وتمعط[٢] صوفه وشعره وذاب جسمه ، وتهرى لحمه[٣] وقارب التلف واللحاق بمن سلف وصار كما قيل :

أصبح فى أمراضه يعذب كخرقة بال عليها الثعلب

فلما أنحله السقم[٤] وأضناه ، قالت له سلحفاة لما زاد به المرض واشتط: دواء دائك كبد البط ، فإن أكلت كبد بطة نصلت[٥] من هذه البلاء البتة . فقال : ومن لى بهذا الدواء إذ ليس لى حراك ، والبط فى الهواء ، فشفاء هذا الداء العضال ، من باب التعليق بالمحال ، وكأن الشاعر يعنينى إذ سمع أنينى ورأى سكونى تحت أحمال شجونى بقوله :

فقال : قُم قلت : رجلى لا تطاوعنى فقال : خذ قلت : كفى لا تواتينى

ثم استنهض همته ، واستنخى[٦] نهمته وصمم عزيمته ، واستعمل فكره واستورى مكره ، وقال لنفسه : لاينجيك من هذا الأنكال إلا التشبث بذيل

---

(١) أبو الحصين : كنية الثعلب .
(٢) فسد وانحل .
(٣) ذاب وتلف .
(٤) المرض .
(٥) خلص .
(٦) تقوى ونهض .

المحال ، لعل الله واهب العطية يظفرنى بهذه الأمنية ، ثم توجه وهو يتشحط[١] إلى صوب البط ، وصار يتلظى[٢] فى جنبات الشط إلى أن لاح له بَعْد الأَيْن[٣] ، أنثى هاتين البطتين ، فتخفَّى إلى أن قاربها ، ثم واثبها فما ساعدته القوة ، فَهَوى فى هوّة ، فما واسعه إلا أن غالط وأظهر المودة وخالط، وعَبَرَت عيناه وبالط[٤] ، وأرى من نفسه أن تلك الوثبة إنما هى من داعية المحبة ، ونهضة الاشتياق إلى الأحبة ، ثم بادر وقال : مرحبا بالجارة الصالحة ، ومن نُعوتِها بمسك العفة فائحة ، وأخلاقها غادية ببشر الخير رائحة ، المخدرة المجيبة ، الحبيبة النجيبة ، حياك الله من قرينة رضية جميلة الأوصاف بهية ، فما أكثر إحسانك وفضائلك وأوفر امتنانك وفواضلك ، لقد عممت بإحسانك جميع معارفك وجيرانك وأطعت زوجك وحلالك ، وتحقق كل أحد لحسن الشيم جلالك ، ومازال ينفق عليها من حواصل هذه الخزعبلات ، ويفعِّم أردان[٥] حقلها من معادن هذه التمويهات ، حتى سكنت بعض السكون ، وركنت إليه أدنى ركون ، ثم أخذ فى الإيناس وتمهيدة واعد الأساس ، حتى اطمأنت واستكانت واستكنت . ثم قال : إنا للّه ولا حول ولا قوة إلا باللّه ، ترين ما رأى فيك زوجك من الخلل ولاح له من عيب حتى فعل ما فعل . قالت : وما فعل ذلك الجُعَل[٦] . قال : لولا أن الغيبة ريبة والنميمة مشؤمة ، ونقل المجالس القبيحة ، وإن كانت وقائعها صحيحة أمر مذموم وهذا معلوم ، لكنت أفصحت وأشبعت القول ونصحت ، ولكن الصبر

---

(١) يضطرب فى مشيته .
(٢) اشتعل غيظاً .
(٣) التعب والإعياء .
(٤) استمر فى الخداع .
(٥) أردان ، مفردها ردن : طرف الكم الواسع . وأردان حقلها : الأسس والمبادئ
(٦) الذميم .

على الضرائر[١] فعل الحرائر[٢] ، والورد لا يخلو عن شوك ، ولا الشباب عن نوع نَوْك[٣] . فلما سمعت هذه النجوة[٤] حملتها المحبة الممزوجة بالشهوة أن ألحت عليه وسألت إيضاح ما لديه ، وأقسمت عليه بحق الجوار إلا ما أطلعها على هذه الأسرار .

فقال : لولا أن الجوار ذمة لما فُهْتُ بكلمة ، خصوصاً وقد ألححتِ بالقسم ، وتشفعتِ بالجوار والذمم ، وأيضا لولا وفور الشفقة وعظم المحبة والمقة ، واعتمادى عليك أنكِ ثقة ، وأن صدرك مخزن الأسرار ، وأنك سيدة الأحرار ، ما أطلعتك على شيء مما كان وصار .

اعلمى أن زوجك المشتط[٥] ، قد خطب بنت ملك البط ، وله فى هذه المكيدة مدة مديدة آخرها اليوم ، كان قد أرسل إلى القوم الماشية والخطابة أن يهيؤا أسبابه .

فلما سمعت هذا الكلام ساورها من الغيرة الضرام ولا تشك فى أنه صادق وذهلت عن التبين فى خبر الفاسق ، وجميع الأخبار عن الأزواج يتوقف فيها النساء إلا خبر الزواج ، ثم إنها تماسكت وأَرَتْ تجلدا وتمالكت، وقالت : أحل الله له من الأزواج ما طاب له ، لا حيلة إلا الانقياد وترك المراد ، وموافقة السنة والجماعة ، والدخول تحت الأمر بالسمع والطاعة، وماذا يفيد التدله[٦] والحيرة ، إن الحلال جدع أنف الغيرة . قال : والأمر كما

---

(١) الضرائر ، مفردها ضرة : زوجة الزوج .
(٢) الحرائر مفردها حرة : المرأة الكريمة .
(٣) الحمق .
(٤) المحادثة سراً .
(٥) الأهوج .
(٦) الدهشة والحيرة .

ذكرت وما أحسن ما افتكرت وصبرت ، وما يمكن الطعن فى الحلال ولكن هذا دليل المَلال[1] ، وكل من ادعى هواك وتخلل فى طريق سواك ولو بِخِلال من سواك ، فلا شك أنه قلاك ، وبنار الهجر والجفاء سلاك ، وليس هذا ساعة وتمضى ، ولا حادثة تقع ثم تنقضى ، إنما هو أمر دائم ونزاع أبد الدهر قائم ، وأنا ما أخشى إلا عليك بما يصل من النكد إليك ، فإن حقك ثابت على وضررك عائد إلى ، فإنك جارة قديمة معروفة بحسن الشيمة ، لم أر منك إلا الإحسان وعدم التعرض إلى إيداء الجيران ، وكل منا قد اعتاد بالآخر وباهى بصحبته وجواره وفاخر ، وأخاف أن يتجدد لى فى الجوار من يتصدى لى بالأضرار ، ويؤذى ولا يعرف حق الجار ، لا يعرفنى ولا أعرفه، ولا ينصفنى ولا أنصفه ، فيتكدر لى الوقت ولا أخلو من نكد ومقت ، لا سيما وأنا ضعيف مبتلى نحيف ، فلا يستقيم الحال ولا أقدر على الارتحال ، ولا زال يسدد المضارب ويفتل منها فى الذروة والغارب[2] ؛ حتى أثر فيها سُمُّه ونفذ فى سويدائها[3] من مكره سهمه ، فاسترشدته إلى وجه الحيلة فى هذه النازلة الوبيلة .

فقال : الرأى السديد والفكر الرشيد أنه إذا أوصل قوله بفعله ، وأَتْبعَ فى أذاه فرضه بنفله[4] ، واختار غيرك عليك طلّقيه ، وألف زوج لديك وأرض الله واسعة ، وهو المعتدى فى المقاطعة ، وأنا أكون السفير فى زوج يخجل البدر المنير ، يعمر دارك ويعرف مقدارك ، ويخدم كلبك وحمارك ، ويملأ وكرك خيرا ، وبطنك طيرا ودارك شعيرا وبُرا ؛ مع كونه وافرا الحشمة مسموع الكلمة ، قد جمع بين طرفى الأصالة والحرمة .

---

(١) الملل .

(٢) وهو ما كان للشىء أعلاه .

(٣) حبة القلب .

(٤) الزيادة .

فقالت : هذا الذى تقول أمر معقول ، وإلى الآن ما وقع وعلى تقدير أن يقع ، إن حصل الشقاق والنفاق وتُرجح الأنذال المستجدة على الكرام العتاق، فيكون بيننا هذا الاتفاق وإن وقعت بيننا المعادلة ، ولم يحصل فى حقى منه مساهلة ولا للضرة علىّ مفاضلة كيف أشاقه[1] وعلى فعل مباح أضايقه ؛ فضلا عن أنى أفارقه ، وكيف أخرب دارى وأضر بحبِّى وجارى ، وأشمت بى الأعداء ويحتاط بى من كل جهة البلاء ، ولكن الرأى المحمود عندى يا ودود ، الصبر فى كل حال على الدهر الكدود ، وتجرع الغُصَصَ ؛ لئلا يشمت الحسود ، كما قيل فى التمثيل : ما بى دخول جهنم ولكن بى شماتة اليهود .

فلما رأى الخبيث أنه لم يفده هذا الحديث ، ولم تتم له الحيلة وأفكاره الوبيلة قال : أقول الحق الذى حصحص[2] ولا عنه محيد ولا مخلص ، إن زوجك قد نُقِل إليه أنك اخترت غيره عليه ، وإنك عاشقة وصحبتك له مخادعة ومماذقة وثبت ذلك لديه وعقد اعتقاده عليه ، وعَزْمُه على الزواج إنما هو تعلل واحتياج لفتح باب الشر ، وتعاطى أسباب النكد والضر ، وقد ثبت عندى أن ذاك الأفاك الأثيم السفاك[3] يريد أن يجرعك كأس الهلاك ، فتيقظى لنفسك وتداركى غدك فى أمسك ، قبل حلولك فى رمسك واستقيمى قبل عكسك ، وأنا منذ سمعت هذه الأخبار لم يقر لى قرار ؛ وذلك لوفور الشفقة وحسن الجوار ، وقد زدت ضعفاً على ضعفى ، وكدت لهذا الغَمّ أُسْقَى كأس حتفى ، وأنتِ يا غرض الحاسد تعلمين أن ليس لى غرض فاسد ، وهذا بديهى التصور لا يحتاج إلى تدبر ولا تفكر ، ولقد غِرْتُ عليك والأمر فى هذا كله منك وإليك .

---

(١) المخاصمة والفرقة .

(٢) ظهر ووضح .

(٣) السفاح .

فتكدر خاطرها وتشوشت ضمائرها ، وضاقت بها الحيل ، وتاه منها العلم والعمل ومن يسمع يخل[1] ، وصالت أفكارها وجالت ، وبدر منها أن قالت : والله لو أمكننى لقتلته ولو وجدت فرصة لاغتلته ، واسترحت من نكد الدهر المغبر ، وهذا العيش الوحش المكدر ؛ فالتقط الثعلب هذه الكلمة من فيها وعلم أن سهم ختله نفذ فيها ؛ لأن عقود المحبة انحلت ، وصورة المودة القديمة زالت واضمحلت ، وتلاشت الصداقة بالكلية وانمحت شهواتها بأدنى جزئية .

فقال : لا تهتمى لذلك يا ضرة هند[2] فعندى عقار من عقاقير الهند، أحلى فى المذاق من ساعة التلاق وأمضى من السيف فى حكم الفراق ، اسمه إكسير الموت وتدبير الفوت وسم ساعة وتفريق الجماعة ، لو أكل منه ذرة أوشم منه نشرة ؛ لقتل فى الحال وفرق الأوصال من غير إمهال ، فإن اقتضى رأيك الأَسَدَّ[3] أن تخلصى من هذا النكد ، ناولتك منه شذرة تكفيك ذرة منه أمره، فإن شئت أطعمته وإن شئت أشممته ، ولولا أنك عزيزة على لم أفه لك من هذه الأمور بشىء ، ولقد فضلتك على روحى فاكتمى هذا السر ولا تبوحى .

فتحملت منه جميلته وعرفت قدرته وفضيلته ، وطلبت منه الدواء لتذهب به عن قلبها الجواء[4] ، وتقتل زوجها المسكين وتسلم من نكده وتستكين ، وزالت تلك المحبة القديمة ، ونسيت الصحبة والصداقة القويمة، ووعدها الثعلب أن يأتيها بالعقار وفارقها على هذا القرار ، ثم إنها انتظرته

---

(١) يتحير ويدهش .

(٢) هند : اسم امرأة ، ثم استعمل استعمال علم الجنس للنساء .

(٣) السديد .

(٤) الضيق والألم .

ليفى بوعدها واحترق صبرها من نار سمها ووقدها ، وتقاعد الثعلب عنها ينتظر ما يتأتى منها ، فحملها مثير الوجد إليه وساقها الأجل المحتوم إلى أن قدمت عليه ، فدخلت وكره وقبلت يده وصدره فتمكن منها ذلك الغادر ومزقها كما يريد ، فصارت كالأمس الغابر .

وإنما أوردت هذا التمثيل ؛ لئلا يكون أصحاب مولانا السلطان من هذا القبيل ، فيكون المعتمد عليهم والمستند إليهم كالنائم على تيار الأنهار، والمؤسس بنيانه على شفا جرف هار[1] .

قال الملك : معاذ الله يا ولدى وقرة عينى وكبدى أن يكون صاحبى ومعتمدى من هذا النمط وشبيها بالعفريت والثعلب والبط ؛ بل كل من أصحابى وسائر أوليائى وأحبابى ما منهم إلا الصديق المهذب ، والرفيق المؤدب ، والشفيق المدرب ، والعتيق المجرب ، وقد جربته فى المودة والإخاء والشدة والرخاء والمروءة والسخاء كما جرى ذلك للتاجر المجرِّب صديقه فى الشدة والارتخاء . قال الولد ينعم مولانا الإمام بتقرير هذا الكلام .

[١٧] **قال الملك** : بلغنى أن بعض التجار الأكرمين الأخيار والكرماء الأبرار ، كان له مال جزيل ، وولد صالح جليل سعيد الطالع ، سديد المطالع عالى الهمة متوالى الحشمة ، ميمون الحركات جميل الصفات ، حسن الصورة مشكور السيرة طاهر السريرة . وكان أبوه قد تخيل فيه مخايل السعادة، وتفرس فيه آثار النجابة والإجادة فكان لا يصبر عن تأديبه وإرشاده إلى سبيل الخير وتهذيبه ، وتربيته بمكارم الأخلاق وترتيبه . فقال له : يا بنى إن الإنسان يحتاج إلى كل شىء وأعظم ما يحتاج إليه ويعوّل فى التحصيل عليه الصاحب الصافى ، والصديق المصافى ، والرفيق المساعد فى وقت الشدائد ،

---

(١) الجرف : الجزء المتآكل من شاطىء النهر ، وجرف هار : أى ضعيف ساقط .

فإن المال ميال ، والذهب ذاهب ، والفضة منفضة ، والملبوس بوس ، والمأكل متآكل ، والخيل خيال ، والفواضل شواغل ، والدهر قاصى ، والعصر عاصى ، والأقارب عقارب ، والوالد معاند ، والولد كمد ، والأخ فخ، والعم غم ، والخال خيال ، والدنيا وما عليها لا يركن إليها ، وما ثم إلا رفيق ذو وفاء مجبول على الصدق والصفاء ، إن غبت ذكرك وإن حضرت شكرك ، مأمون على نفسك ومالك وأهلك وعيالك فى حالك ومآلك ، إن غاب صانك وإن حضر زانك ، فهو أفضل موجود يقتنى ، وأحسن مودود يصطفى، فإن ظفرت به فتشبث بسببه .

ثم قال له : يا بنى قد أقمت فى الحضر وانقضى لك فيه ما ذقت مما حلا ومر ، فلا بأس أن تحيط علما بأحوال السفر ، فإن السفر مَحَكٌ الرجال، ومجلبة الأموال ، ومكسبة التجارب ، ومرآة العجائب والغرائب ، فاعزم على بركة الله تعالى وتوكل عليه واصحب معك فيه ما تحتاج إليه . ثم أفاض عليه المال وأضاف إليه صالحى الرجال وحين ودعه ووصاه واستودعه قال : يا بنى لا تجعل دأبك وطلبك واكتسابك إلا استجلاب الصاحب النافع دون سائر المنافع ؛ فإنه أوفر بضاعة وأربح تجارة ، وليس على الصديق الصدوق أبدا خسارة ، واجعله فى سفرك نصب عينك واشترد بنفسك ومالك ونقدك ودينك وقد قيل :

أخَاكَ أخَاكَ إنَّ مَنْ لا أخاً لَهُ ... كَسَاعٍ إلَى الهَيْجَا بغَيْر سِلاَحِ(١)

والمراد به الصديق .

واعلم أن الأخ الصُلْبِى(٢) ربما يضرك ، وأما الصديق الصالح فإنه أبدا يسرك ، والصاحب الشفيق خير من الأخ الشقيق . وقد قيل : رب أخ لم تلده أمك .

---

(١) الهيجا : الحرب .

(٢) الأخ من الأب أو الشقيق .

فقبل الشاب وصية أبيه ، ثم توجه فى حشمه وذويه بقصد جميل ومال جزيل ، فمكث غير بعيد ، ثم عاد وهو سعيد فقال له أبوه : حبيت وحييت ما أسرع ما جيت ، قل لى أين ذهبت وماذا اكتسبت .

فقال : يا أبت امتثلت مرسومك الكريم واكتسبت بالمال كل ولى حميم، وقد جئت بهم زُمرا ، وعدتهم خمسوَن نفرا كل منهم صديق صادق ورفيق موافق فى الفضل بارع ، وإلى الخير مسارع ، وفى الرخاء صادق الإخاء وفى الشدة أوفى عدة . قال أبوه : يابنى كيف تصفهم بهذه الصفة وتعرفهم بهذه المعرفة ، ولم تجربهم فى قضية ولا واقعة صعبة أو رخية ، وقد قيل :

لا تمدحن أمرأ حتى تجربه ولا تذمنه من غير تجريب

وقد قيل أيضا:

إذا رمت أن تصفى لنفسك صاحبا فمن قبل أن تصفى له الود أغضبه

فإن كان فى وقت التغاضب راضيا وإلا فقد جربته فتجنبه

وقيل أيضا :

الناس أكيس من أن يمدحوا رجلا مالم يروا عنده آثار إحسان[1]

واعلم يا ذا اللطائف أنى خائف أن يكون أصحابك وأصدقاؤك وأحبابك مثل أصحاب الرئيس المدبر الخامل النفيس الذين رعوه فى روضٍ وفره وتركوه فى قفرٍ فقره . قال ابنه : يا أبت كيف ورد ذلك وثبت .

[١٨] **قال التاجر** : ذكر رواة الأخبار ؛ أنه كان فى بعض الأمصار، رجل رئيس كبير نفيس ، له أموال وافرة وجهات متكاثرة ، وأماكن عامرة، وضياع ومزدرعات وبساتين ، واقطاعات وعقار له ارتفاعات ، فكان ولده يمد يده إلى كل معصية ومفسدة ، ويجترئ ذلك السفيه على كل ما يلوح له

---

(١) الكياسة : الفطنة .

من جهات أبيه ، والتف عليه جماعة من عبيد البطن والمجاعة ، كأنهم طير قِرَ لَى[1] إن رأى خيرا تدلى ، وإن رأى شرا تعلى ، ومدَّ يَدَ الإسراف فى التبذير والإتلاف ، وصار أبوه ينصحه ويردعه عن جموحه ويكبحه . وقال له : يا بنى استعمل الارتفاق فى الإنفاق واستخلص من الرفاق ذوى الإشفاق، واعلم أن هذا المال هو لك مدخر ولتصرفك فيه منتظر ، وإنما أنا لك خازن، واللّه تعالى مجاز على فعالى من مساو ومحاسن ، وتيقن أن المال هو عزك فى الدنيا ، وزادك إلى الأخرى ، وأن له وجوها ومصارف وعوارف ومعارف ، فإذا صرف فى غير محله ودُفِعَ إلى غير أهله كان إثما ووبالا وفى الآخرة عذابا ونكالا ، وأحمق الناس المستحق لنزول البأس من اكتسب المال حلالا وبذره فى الفساد يمينا وشمالا وادخر به إثما وخبالا فصرفه إلى من لا يحمده وعليه حسابه ونكده ، وأنت إذا صرفت مالك ووزعته وفى غير مواضعه زرعته ، وأنفقته على من لا يعرف فضيلتك ، ولا يحمل جميلتك ، ولا يشكر صنعك ، ولا يقصد نفعك ، ولا يجلب لك خيرا ، ولا يكشف عنك ضيرا ؛ خرجت من عز الدنيا وفوتّ زاد الأخرى ، وهؤلاء الذين قِبَلَك مهطعين[2] عن اليمين وعن الشمال عزين[3] ؛ ثمرة صحبتهم الندامة ، وعاقبة أمرهم الخيبة والملامة ، والبعد عنهم غنيمة وسلامة ، وإذا كان الأمر كذاك ، فإياك يا ولدى ثم إياك من صحبة هؤلاء الأحداث ، والتلوث بقربهم فإنهم أخباث ، واحتفظ بصون مالك ولا تنفقه إلا على نفسك وعيالك ، وفيما يُبقى ماء وجهك فى حالك ومآلك ولازال أبوه قابض عنانه بقدر طاقته وإمكانه يُذكِّره هذه الوصية بكرة وعشية حتى أدركته المنية ، وخلف ذلك المال العريض لذلك الولد المريض ، فمد يده كما كان إلى كل مفسدة ونسى

---

(١) القرلى : طائر مائى يتغذى بالأسماك .

(٢) مسرعون .

(٣) عزين ، مفردها عزة : متفرقة .

يومه وغده ، وشرح فى مُناه متن اللهو ، وقرر بحديث من كتاب فقه الزهو ، باب الأنجاس وسجود السهو ، واجتمع عليه قرناء السوء وحضروا ، وخلا له ولهم الجوّ فباضوا فى الفساد وسفروا[١] ، وغابوا عن الرشاد وما حضروا ، وصاروا يعظمونه ويكرمونه ويحترمونه ، فإذا كذب صدقوه ، وإذا ضرط سمّتوه وشمّتوه[٢] ، وإذا نهق طربوا ، وإذا أخطأ صوبوا، وإذا قعد قاموا ، وإذا قام ناموا ؛ يفدونه بالمُهج[٣] والأرواح ، ويلازمون خدمته فى المساء والصباح .

وكان له أم مدبرة عاقلة مفكرة ، فقالت له : يا بنى لا تكن صبى وتذكر وصايا أبيك ، وإياك ومَنْ يليك ، وتأمل ما لديك ، واحفظ مالك وما عليك، ودبر معاشك ، وصن وجهك ورياشك . واعلم أن أصحابك وعشراءك وأحبابك وندماءك ورفقاءك وأخصّاك وأصدقاءك ، كلهم عبيد البطن ولورقات بذى شيق[٤] أو حصن لا خير عندهم ولا مير[٥] ، وجميعهم كسير وعوير[٦]، فإياك وصحبة من لا يتولاك ، لا تركن إلى صداقتهم ولا تعتمد على موافقتهم، فإنهم فى الرخاء يأكلونك وفى البلاء يتركونك ، وإلى مخالب القضاء يسلمونك ؛ رأس مال محبتهم ما فى يديك ؛ وأساس بنيات مودتهم ما يرونه من النعماء عليك ، فإن قلت والعياذ باللّه فلّوا[٧] وخلوك فى عقد النوائب مربوطا وانحلوا . وأقل الأقسام يا ذا الأصل السام ، أن تجرب أصحابك وتختبر من يلازم بابك ، ويقبل بشفاه المودة أعتابك فى شىء نابك، أعجز عن حمله نابك من حوادث القضاء أو فى حالة من أحوال الغضب

---

(١) أى غلب عليهم الانحلال وتمكن منهم الفساد .
(٢) شمت العاطس : دعا له بقوله مثلاً : يرحمك الله .
(٣) المهج ، مفردها مهجة : دم القلب .
(٤) الشيق : الجبل .
(٥) المير : الطعام . ولا خير عندهم ولا مير . أى لا عاجل ولا آجل .
(٦) الأعور الجبان .
(٧) تولوا .

والرضاء ، أو السعة والضيق أو التكذيب والتصديق ، فمن وجدته ناصحاً صادقاً أو مطاوعاً مصادقاً وفى كل الأحوال موافقاً ، وفى الرخاء والشدة مرافقاً يوثق به فى الغيبة والحضور وحالتى السرور والشرور ، يؤدى الأمانة ويجتنب الخيانة ، ويغار على دينك وعرضك ، ويساعدك على أداء سنتك وفرضك ؛ فاركن إليه واعتمد فى أمورك عليه ، ومن وجدته منافقاً وفى أخلاصه ممازقاً ينسج شقة الوداد بوجهين[1] ، ويتكلم كخائض المداد[2] بلسانين ، فلا تقربه ولا تصحبه فإن بعده غنيمة والخلاص منه نعمة جسيمة .

وانظر بعين الثبات مافى هذه الأبيات من حسن الصفات فمن كان بها متصفا فتمسك بأذياله ؛ فإنه من أهل الصفا وهى هذه :

وقد قيل قول المرء يكشف عقله ... ويبدى سجاياه وما كان يكتمُ
فهذا كلامى مظهر ما أُكِنُّه ... وأكثر هذا الخلق عن عيبهم عموا[3]
فمن شيمتى أنى مُطيعٌ لصاحبى ... وأصلح عن خصمى وإن كنت أخصم
وأرضى لنفسى دون ماهو حقها ... وألزمها للخل ما ليس يلزم
إذا قال أصغى للمقال وإننى ... لأعلم منه بالمقال وأفهم
ولم أشك من خل لئلا يملنى ... ومن لى بخل لا يمل ويسأم
وأقطع فى بحثى وإن كنت غالباً ... وأسكت حتى قيل ليس ذا يعلم
لأبقى وداد الناس لى لا أضيعه ... ومن لا يدارى الناس يرمى ويرغم[4]
وفى كل ذا تقوى الاله شعائرى ... ولابد من لا يتقى الله يندمُ
ولا نقص فى عقلى وأسباب نعمتى ... وإنى وإنى بالكمال مكرم
ولى همة يسمو إلى الأوج قدرها ... ولكن خمول المرء للدين أسلم[5]
ووجه اعتقادى مثل عرض أبيض ... ودينى متين واعتمادى مقوّم
وحسبى من دنياى قوت وخرقة ... يبلغنى آثار من قد تقدموا
فهذى غريزات لدى وإننى ... لأدعو إلى هذى الخصال وأعزم

---

(١) أى يخادع ويمارى .
(٢) المراد : ما يوضع من حبر وغيره فى القلم .
(٣) أكنه : أخفيه .
(٤) يرغم : يهجره الناس .
(٥) الأوج : قمة الشىء .

فأثر هذا الكلام فيه ، وتأمل ما تضمنته فحاويه ، ثم أراد أن يجرب ملازميه ومن بروحه وجسده يفديه .

فقال يوما من الأيام : وقد اجتمعوا على منادمة المُدام ، اتفق أمر عجيب وشأن غريب وهو أنه كان عندنا هاون[1] فى زاوية مخزون زنته ربع قنطار ، أتى البارحة عليه الفار فقرضه وأكله وعمَّه بالأكل وشمله ، فلم يدرك من ذلك النحاس فى مكانه إلا ما فضل من برادة أضراسه وأسنانه ، فترشفت ثغور آذانهم منطقه واستحلى كؤسها كل منهم وصدقه ، وقالوا : هذا وقع بغير شك لأن الهاون كان فيه وَدَك[2] والفأر أسنانه باضعة[3] وأضراسه لجن حرافيش بغداد قاطعة .

فلما رأى أنهم وافقوه وصوّبوا كلامه وصدقوه ازدادت فيهم محبته وقويت إليهم رغبته ، حيث رفعوا رُتْبه وستروا فى جيب مكنونهم عيبه وحققوا مُحاله وصدقوا مقاله ، فأسرع إلى أمه مسروراً فرحاً محبوراً منشرحاً. وقال : يا أماه انظرى كلام أصيحابى ، واخبرى مقام أحبابى ذكرت لهم كلاماً باطلاً ومن حلية الصدق والامكان عاطلاً ، فحققوه بلا مرية[4] واثبتوا حقيقته من غير فرية[5] ، وصاغوا له من جواهر التوجيه أبهى حلية، وذكر ما جرى لهم وله من الجنون والخباط والوله . فقالت له أمه : يا ولدى ومهجة كبدى هذا أمر يضحك منه الجاهل ويبكى على حالِك الحالِك منه العاقل كما قيل :

أمور تضحك السفهاء منها ويخشى من عواقبها اللبيب

---

(١) الذى يدق فيه الدواء ونحوه .
(٢) دسم .
(٣) حادة قاطعة .
(٤) شك .
(٥) كذب .

اعلم أيها الداهل[1] الغافل ؛ إنك من أصحابك على طائل ، وهؤلاء أعداء فى صورة أوداء وهم فى التمثيل كما قيل :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق

وتيقن أن هؤلاء فى النعمة خداعون وفى النقمة لذاعون ، وأنت شاب غرير[2] ، وبأعقاب الأمور لست ببصير لا مارست الخَلق ، ولا فرقت بين الصادق من ذوى المَلْق[3] ، لاخبرتهم ولا سيرتهم ولا دخلت مداخلهم ولا ميزت خارجهم وداخلهم .

إن الصديق الصادق والرقيق الفائق من بَصَّرَك عيوبك ، وغفر لك بعد نصيحتك ذنوبك ، وأطلعك على حقائق الأشياء ونبهك على ما خفى من أمور الدنيا ، وأرشدك إلى ما يزينك ويصلح به دنياك ودينك ، وأبكاك إذا نصحك لا من أضحك وفضحك . وأما الذى يدلس ويلبِّس ويوسوس ويهوِّس ويروج الباطل ويحلى العاطل فذاك ليس بصديق على التحقيق ، وإنما هو عدو فلا يكن لك معه قرار ولا هدو .

فلم يلتفت الشاب إلى هذا الخطاب ، حيث كان مصادماً لغرضه غير شاف لعلته ومرضه ، وقال : صدق من نطق وفاه بالكلام الحق ، من قال إفشاء السر إلى النساء فعل الأحمق ، ثم تركها ترغو واستمر هو مع أقرانه يلهو ، وداوم على تلك الحال حتى إذا دنت لنفادها الأموال ، وبِيع الرخيص والغال ، فما استفاق من سكرته واستيقظ من رقدته إلا والأموال وقد ذهبت والديون قد ركبت وهو يُنْشد وإلى مذهبه يُرْشِد :

ليذهبوا فى ملامى أينما ذهبوا فى الخمر لا فضة تبقى ولا ذهب

(١) المتحير .
(٢) عديم الخبرة .
(٣) الكذب والنفاق .

إلى أن ذهبت السكرة وجاءت الفكرة ونفقت البيضاء والصفراء[١] فى الحمراء والخضراء[٢] وأصبح ملقى على الأرض السوداء ، وأتعس من فوق الغبراء[٣] ، وأفلس من تحت الزرقاء[٤] ، وتراجع عنه الأصحاب وعاداه الأصدقاء والأحباب ورجعوا عنه بعد ما سئموا منه ، وصار ناديه يناديه :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر[٥]

وصارت محبتهم له تكلفا ، ورؤيتهم إياه تعسفا ، فاتفق له فى بعض الأيام أن قال فى أثناء الكلام لذلك الجمع بعينه الذين كانوا أجمعوا على صدق مينه[٦] : الفار الغدار أكل لنا فى الدار البارحة رغيفا كاملا فأتى على أكله شاملا ، فما أبقى منه لبابة ولا غادر من غدير وجوده صبابة[٧] ، فتنادوا للحال بالمحال ، والكذب فى الأقوال الفار الضعيف كيف يأكل كل الرغيف وهو عاجز ونحيف ، وتناولوه بالطعن ، وتناوشوه بألسنة السب واللعن ، وزيفوا أقواله وسفهوا أفعاله.

وإنما ذكرت هذا الكلام يا أيمن غلام وأحسن من البدر التمام ؛ لتعلم أن أكثر من يدَّعى صدق الصحابة من ذوى المعارف والقرابة ، إنما دعواه كذابة كسحاب صيف لا يديم انسكابه ، وإن الشخص مع الناس الأوغاد والأكياس بمنزلة كوز الفقاع[٨] ؛ إن رأوا فيه حلاوة الانتفاع استلموه

---

(١) البيضاء والصفراء : الفضة والذهب ، والمراد : الدراهم والدنانير .
(٢) الحمراء والخضراء : الخمور .
(٣) الأرض .
(٤) السماء .
(٥) الحجون : جبل بمكة . معجم البلدان (٣٥٢٨) .
(٦) الكذب .
(٧) القليل من الماء .
(٨) الفقاع : الشراب يتخذ من الشعير أو من الأثمار . سُمى به لما يعلوه من الزبد .

وبالأيدى رفعوه وقبلوه ورشفوه ، وإذا مَضَّوا[1] محصوله وفرغوه ورموه وتركوه وتحت الأقدام طرحوه ، ثم قال التاجر لولده : راحة روحه وجسده وإن كان من صحبتهم ، وفى سفرك اكتسبتهم مثل هؤلاء الأصحاب ، فإياك أن تفتح لهم الباب وترفع بينك وبينهم الحجاب .

فقال الولد : معاذ الله الواحد الأحد ، يا أبت عندى ثبت أنهم بدور كرام وصدور عظام يقومون لقيامى ، وينصتون لكلامى ، ويجيبون ندائى ، ويؤمنون على دعائى ، وهم أخلاء فى السراء والضراء .

فقال أبوه : اعلم يا ابنى وقرة عينى إنى عمرت سبعين سنة ، وعاينت من الأمور الخشنة والحسنة ، وبلوت الأصحاب وتلوت الأعداء والأحباب ، ورأيت الدنيا وأهلها ، وقلَّبتُ وعرها وسهلها ، ولم أترك من جنس بنى آدم فى أكناف الآفاق ، وأطراف العالم من أمم العرب والعجم نوعا لم أخبره وصنفا لم أسبره[2] ، فلم يصفَ لى على التحقيق غير صديق ونصف صديق، فأنت يا بنى العزيز الغالى كيف قدرت بالتوالى فى هذه المدة اليسيرة على جمع هذه الطائفة الكثيرة ، وها أنا يا إمام أُريك مصداق هذا الكلام وأطلعك من بين الأصحاب على مالهم من مقام . ثم عمد إلى شاة فذبحها وبدمها فى ثياب طرحها ثم دمجها ، وفى كفن أدرجها وقال لابنه : قم ياذا الارتقاء أرنى هؤلاء الأصدقاء واحدا بعد واحد ؛ لتحقق غيب عيبهم بالشاهد ، وتعرف طرائقهم وتتبين حقائقهم ، ثم وضع الشاة فى عَدَل[3] وأخفى كل هذا الفعل وحمل العدل على ظهر غلام ، وخرج ليلا والناس نيام ، وقصد أحد الأصحاب وطرق عليه الباب ، فخرج مسرعاً إليه وترامى متواضعاً بين

---

(١) أى أنهوا ما فيه .

(٢) أمتحنه .

(٣) ما تُحمل فيه الأشياء .

يديه، وأظهر البشر والسرور والابتهاج والحبور ، وبالغ فى الاحتشام والإكرام والاحترام ، وشكر مساعى الأقدام ، ثم بادر إلى دعوته للدخول وتعاطى انجاح ماله من سؤل ومأمول .

فقال له الشاب : يا زين الأصحاب وعين الأحباب دع الكلام لضيق المقام ، فقد دهتنى دهية وعرتنى بلية ، وأعظم بها من قضية ويا لها من رزية . فقال : ماهى وُقِيتَ الدواهى ؟ فقال : كان بينى وبين واحد من أهل الشقاوة خصومة قديمة وأسباب عداوة ؛ اسمه معروف وذكره موصوف لشخص مفقود لم يكن له حقيقة فى الوجود ، وهو من أكابر الزمان وأحد الرؤساء والأعيان ، فتلاقينا فى خلوة وتداعينا ما بيننا من جفوة ، وتنابشنا الأسباب ، وتناوشنا باللعن والسباب وتناولنا فى الشقاق شق الأعراض ، وتأذن القلوب من الأغراض بالأمراض ، وتنقلنا من المكالمة إلى المشاتمة ، ومن المواصمة[1] للملاكمة ، وترقينا من الكفاح إلى الجراح ، فثارت النفس المشؤمة إلى إيقاع حركة ذميمة ، فضربته فجرحته وقتيلا طرحته ، ولم يشعر بنا أحد من أهل البادية والبلد ، وندمت غاية الندم وأنى يفيد وقد زلت القدم ، وجرى قلم القضاء بما حكم ، ثم أفكرت بمن أستعين على هذا الأمر اللعين وأدرت فى خاطرى كل مساعد ومعين فلم يمل القلب إلا إليك ولا استقر الخاطر فى ركونه إلا عليك ، وقد قصدت جنابك ويممت بابك ، إذ أنت أعز مخدوم والسر عندك مكتوم ، وهاهو مقتولا أتيتك به محمولاً ، فاحفر لهذه الجثة حُفيرة واخفنى عندك أيّاما يسيرة ، إلى أن تطفأ هذه النائرة[2] ، وتسكن الفتنة الثائرة وهذا وقت المروة وزمان الفتوة والقيام بحق الصداقة والأخوة .

---

(١) تواصم القوم : عاب بعضهم بعض .

(٢) الفتنة .

فلما سمع الصاحب اللبق هذا الكلام القلق ، تضجر وتضرر وتنكد وتضور[1] ، وقال : يا أخى بيتى عتيق مع أنه جحر مضيق لا يسع أولادى ولا زادى وعتادى ، وإذا ضاق عن الأحياء فكيف بالأموات ، وهذه بلية من أوحش البليات ، وأظنها لا تخفى على الناس ، ويدركها أولو الفراسة والأغبياء ؛ فضلاً عن الأكياس ؛ لأن قضاياكم قبل اليوم مشهورة وبلغنى أن عداوتكم قديمة مذكورة ، وفى التواريخ وصدور الكتب مسطورة ، ولكم وقعات ونوازل وله أيتام كأنهم الزغب الجوازل[2] ، وأما أنا فلا يمكننى الدخول فيها ولا تعاطيها بوجه من الوجوه ولا تلافيها ، فاكفنى شر ضيرها واندبنى إلى غيرها ، وإنى أكتم سرها فلا تخف من جهتى شرها ، فألح عليه فما أفاد[3] ورده غير ظافر بما أراد .

فلما أيس منه تركه وانتقل عنه ودار على سائر أصحابه وذكر لهم مثل الأول وخطابه ، فكان جواب الجميع مثل جوابه إلى أن أتى على الجميع واستوفى شريفهم والوضيع ، ورأى ماهم عليه من طبع بديع ، كأنهم كانوا متواردين على شرب هذا الصنيع ، فعاد إلى دار أبيه ورجع إلى صحة بيان التنبيه ، فقال له : بمدير الفلك[4] أحققت صدق ما قلت لك ، وتبينت ماهية أصدقائك وحقيقة أوليائك ، وإنهم نقش حيطان ورقش غيطان[5] وغمام بلا مطر ، وأكمام بلا زهر وآجام[6] بلا ثمر .

---

(١) تألم .

(٢) الزغب الجوازل : صغار الطيور لم ينبت ريشها بعد . والمراد : الصغار الذين لا حول لهم ولا قوة .

(٣) أفاد .

(٤) بمدير الفلك : أقسم بالله سبحانه وتعالى .

(٥) أى لا فائدة منهم .

(٦) آجام ، مفردها أجمة : الشجر الكثيف .

ثم قال : قم يا زين الأحباب أريك ما قلت من حقيقة الأصحاب ، ثم دخلا الطريق وقصد أنصف الصديق ، وطرقا الباب فخرج وتلقاهما بالترحاب، فقال له ذلك المقال وقصد بمعونته الخلاص من ذلك العِقَال[1] فقال: حبا وكرامة حللتما بمنزل السلامة ، أنا بكم نشيط وأجلكم بى بسيط ، غير أنى أُعلِمُكم أن منزلى غير فسيح حتى أدفن فيه هذا الذبيح ، وليس لى مخبأة ولا مخدع ولا سكن فى مطاويه ولا مصنع ، وأخاف أن أمْرَكم لا يختفى ، وبهذا المقدار فى أمركم لا أكتفى ، ويدى لا تملك غيره وقد وقعتُ بهذا السبب فى حيرة . وبالجملة والتفصيل أنا أكفيكما شر هذا القتيل ، فقالا : لا نقتنع بذلك ولكن سد عنا المسالك . فقال : توجها حيث شئتما فلا أنا سمعت ولا أنتما قلتما .

فتوجها إلى الصديق الكامل ، وذكرا له الأمر الحامل وقصدا بتلاقيه كرمه الشامل . فقال لهما : أو شىء غير ذلك وقاكما الله شر المهالك ، فقالا: لا إلا دفن هذا المقتول وإخفاء هذا الأمر المهول ، وأن نكون تحت أذيالك الساترة حتى تسكن هذه الفتنة الثائرة ، فإن أهله يطلبونا فإن وجدونا يسلبونا، ولا يرضون إلا بالدمار وخراب الديار ولا يقنعون بالمال والعقار[2] ، وهذه قضية عظيمة وداهية جسيمة فإن كنت تنهض بإطفائها وحمل أعبائها ، وتسعى فى إخفائها ؛ فقد قصدناك ودون الأصحاب أردناك ، فإن عجزت عن سدها فلا عتب عليك فى ردها ولا تتكلف فوق طاقتك ، ولا تتجشم لأجلنا غير استطاعتك .

فقال : سبحان الله واسوأتاه هذا يوم المروأة والوفاء ، وتذكر رسائل إخوان الصفاء[3] فلكم الفضل إذ قصدتمونى والجميلة التامة حيث أردتمونى ،

---

(١) المأزق .

(٢) المنازل .

(٣) إخوان الصفا : جماعة ذات طابع دينى سياسى ، توفيقية فى نهجها ، نشأت فى البصرة ، جمعوا بين الفكرين الإسلامى واليونانى وبالأخص الفيثاغورى ، ودونوا تعاليمهم فى رسائل كتبت بأسلوب مسهب .

أما والله لو كان ألف قتيل لواريته ، وكل ما كان من أمر غيره جاريته وداريته ، لا يسمع أبدا خبره ، ولا ترى عينه ولا أثره ، وأما أنتما فأفديكما بروحى وأولادى وطريفى وتلادى(١) ، وعندى ديار أنزه من جنان الأبرار، وأفيح من كل دار فادخلوها بسلام آمنين ، فإنها تشرح كل قلب حزين ولو أقمتم بها سنين ما شعر بكم أحد من العالمين ، فيها أرغب نديم وأقرب خديم، وأحسن جليس ، وأيمن أنيس ؛ فلن تملوا مقامها ، ولا تعدموا إكرامها ، فأنتم عند من لا يمل أبدا نزيله ، ولكم فى ذلك الفضل والجميلة .

قال التاجر : شكر الله سعيك وحفظ على أصحابك مودتك ورعيك . ثم ودعه وانصرف وقد عرف الولد من حقيقة الأمر ما عرف . ثم قال لولده : يا بنى وأعز عندى من كل شى ، إن اتخذت الصديق فليكن صديقك على هذا الطريق ؛ وإلا فالإنفراد أحسن ، والعزلة أوفق إن أمكن كما قيل :

فَاقَ حُبى كُلّ المَلاح كَمَالاَ هَكَذَا هَكَذَا وإلاَّ فَلاَ لاَ

ولقد أرشد من أنشد حيث قال هذا المقال :

مَافى زَمَانِكَ مَنْ تَرجُو مَوَدتِهِ وَلاَ صَدِيْقٌ إِذَا جَارَ الزَمَانُ وفَىَ
فَعِش فَرِيْداً وَلاَ تَركَنَ إلى أحدٍ إنِّى نَصَحْتُكَ فِيْمَا قَدْ جَرَى وَكَفَى

ثم إن الملك قال لأولاده : ياذوى الأفضال إنَّ غالب أصحابى من الأمراء والرؤساء الكبراء خصوصا فُلان أمير ممالك خراسان هم من هذا القبيل ، وأنا عودتهم هذا الجميل فكونوا فى الحقيقة متمسكين بأسباب هذه الطريقة .

فلما أكمل وصيته أولاده هيأ لسفره عتاده وذكر الله وزاده ، ثم ودعهم من دار الشرور وانتقل إلى دار الحبور والسرور ، وقد عهد إلى أكبر أولاده واستودعهم الله وهو القاهر فوق عباده ، من لا تضيع الودائع لديه ولا يخيب من توكل عليه ، فسمعوا الوصية وأطاعوا وتعلقوا بأذيال أهدابها فما ضاعوا،

---

(١) كل غالى وعزيز .

واستمروا تحت أمر أخيهم كما كانوا فى حياة أبيهم ، كأن أباهم ما مات ولم يقع بينهم شتات ؛ فدام لهم السرور وانحسمت عنهم مواد الشرور ؛ وأشرقت بهم ممالكهم وأملاكهم ، ودارت بالسعود أفلاكهم .

ثم إن الحكيم حسيب انتقل من كلامه العجيب بعد فراغه من حكم ملك الأعجام إلى فوائد ملك الأتراك الهمام فشنَّف المسامع ، وشرف كل وراء سامع ، وشرع فى القال والقيل .

وحسبنا الله ونعم الوكيل ، والحمد لله رب العالمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

obeikandl.com